

الصَّراطُ الْمُسْتَقِيمُ

تَأَلَّفَ
خَادِمُ عِلْمِ الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ
الْشَّيْخُ عَبْدُ اللَّهِ الْهَرَرِيُّ
المَعْرُوفُ بِالْحَبَشِيِّ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ
الْمُتَوَفَى سَنَةَ ١٤٢٩ هـ



مَشْرِكَ دَارُ الْمَنَافِعِ وَالطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ وَالنَّفَاقَةِ
النويري - بيروت - لبنان تلفون: ٠١/٦٤٦٧٠٩

مُلْتَزِمُ الطَّبْعِ

شَرِكَةُ دَارِ الْمَشَارِقِ لِلطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ وَالنَّوْصِ ش.م.م.

الطبعة الحادية عشر

١٤٣٣ هـ / ٢٠١٢ ر

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الأمين، و على ءاله وأصحابه الطيّبين.

وبعد: فإنّ العلم بالله تعالى وصفاته أجلّ العلوم وأعلاها وأوجبها وأولاها ويسمى علم الأصول وعلم التوحيد وعلم العقيدة، قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [سورة محمد]، ويسمى هذا العلم أيضا مع أدلته العقلية والنقلية من الكتاب والسنة علم الكلام.

وقد اهتم العلماء الأفاضل بهذا العلم اهتماما كبيرا، قال المحدث الفقيه الأصولي الزركشي في تشنيف المسامع: "إنّ الأئمة انتدبوا للرد على أهل البدع والضلال، وقد صنف الشافعي كتاب "القياس" رد فيه على من قال بقدّم العالم من الملحدين، وكتاب "الردّ على البراهمة" وغير ذلك، وأبو حنيفة كتاب "الفقه الأكبر"، وكتاب "العالم والمتعلم" رد فيه على المخالفين، وكذلك مالك سئل عن مسائل هذا العلم فأجاب عنها بالطريق القويم، وكذلك الإمام أحمد اهـ.

ومن جملة المعتنين بهذا العلم تأليفا وتدرّيسا الإمام الفقيه الشيخ عبد الله الهري المعروف بالحبشي فألف عدة كتب منها كتاب "الصراط المستقيم" وهو هذا الكتاب الذي بين أيدينا، وقد لقي كتاب الصراط المستقيم إقبالا بالغا من أهل العلم والمعرفة، وخصوصا من طلبة العلم الشرعي وطبع إحدى عشرة مرة، فلذلك يسرّنا أن

نقدم لكم الطبعة الحادية عشر من هذا الكتاب سائلين المولى عزّ وجلّ أن ينفع به إنه
على كل شيء قدير.

قسم الأبحاث والدراسات الإسلامية
في جمعية المشاريع الخيرية الإسلامية



نبذة في ترجمة المؤلف

هو العالم الجليل قدوة المحققين وعمدة المدققين صدر العلماء العاملين الإمام المحدث الفقيه اللغوي الأصولي الزاهد الشيخ أبو عبد الرحمن عبد الله بن محمد بن يوسف بن عبد الله بن جامع الهرري موطنًا الشيبلي العبدري القرشي نسبًا الشافعي مذهبًا مفتي هرر. ولد في مدينة هرر حوالي سنة ١٣٢٨هـ - ١٩١٠ ر.

نشأ في بيت متواضع محبًا للعلم ولأهله فحفظ القرآن الكريم وهو دون العاشرة. حفظ عددًا من المتون في مختلف العلوم ثم أولى علم الحديث اهتمامه قراءةً ودرايةً للكتب الستة وغيرها وأجيز بالفتوى ورواية الحديث وهو دون الثامنة عشرة. طاف في أرجاء الحبشة يتتبع علماءها ويأخذ منهم كما رحل إلى الصومال وجيبوتي ثم سافر إلى الحجاز وأقام فيه سنتين ثم إلى بلاد الشام حيث أقام في دمشق نحو عشر سنين انتقل بعدها إلى بيروت. زار بيت المقدس قبل أن يحتله اليهود والأردن ومصر وتركيا والمغرب وعددًا من البلاد الأوروبية مفيدًا ومستفيدًا ناشرًا للعلم ومنافعًا عن الشريعة والدين حيث حلّ بحيث شغله إصلاح عقائد الناس ومحاربة أهل الإلحاد وقمع فتن أهل البدع والأهواء عن التفرغ للتأليف والتصنيف ورغم ذلك ترك آثارًا ومؤلفات قيمة منها شرح ألفية السيوطي في مصطلح الحديث والصراط المستقيم والدليل القويم على الصراط المستقيم في التوحيد وبغية الطالب لمعرفة العلم الديني الواجب والتعقب الحثيث على من طعن فيما صح من الحديث والمطالب الوفية شرح العقيدة النسفية وإظهار العقيدة السنية بشرح العقيدة الطحاوية وشرح ألفية الزيد في الفقه الشافعي وشرح متن أبي شجاع في الفقه الشافعي وشرح متن العشماوية في الفقه المالكي وشرح متممة الآجرومية في النحو وشرح البيقونية في المصطلح وصريح البيان في الرد على من خالف القرآن والمقالات

السنية في كشف ضلالات أحمد بن تيمية والدر النضيد في أحكام التجويد والروائح الزكية في مولد خير البرية وغيرها.

من مشايخه الفقيه الولي الصالح محمد عبد السلام الهرري دفين دِيرَدُوا قرأ عليه في النحو والفقه والتوحيد، وعالمُ رايّة ومفتي الحبشة الفقيه المحدث محمد سراج الجبّري قرأ عليه وأجازه، وعالمُ داوّه وصالحها المقرئ الفقيه أحمد بن عبد الرحمن الحسني المشهور بحاجّ أحمد كبير دفين كدّو وإمام المسجد الحرام أيام العثمانيين قرأ عليه وأجازه، ونحويّ الحبشة ومفسرها الشيخ شريف الجُمّي دفين جمّا قرأ عليه وأجازه، والمقرئ داود الجبّري دفين أديس أبابا قرأ عليه القراءان كلّهُ وشرح الجزرية للشيخ زكريا الأنصاري وأجازه، والشيخ المحدث محمد بن علي أعظم والصديقي البكري الخيرابادي الهندي ثم المدني الحنفي قرأ عليه وأجازه، والمقرئ محمود فايز الدَيْرَعَطاني نزيل دمشق قرأ عليه ختمه برواية حفص، وغيرهم كثير. وأجازه الشيخ محمد الباقر الكتّاني نزيل دمشق ووصفه^(١) في إجازته بالوليّ والعالم.

وأجيز بالطريقة الرفاعية من الشيخ الصالح عبد الرحمن السَّبْسَبِيّ الحُمويّ ومن الشيخ المشهور محمد طاهر الكيّالي الحمصي وكتب له في إجازته^(٢) أما بعد فأني بعد أن استخرت الله عز وجل أجزت ولدي القلبيّ التقي النقي العلامة الشيخ عبد الله الهرري ابن محمد الحبشي من هرر نزيل مدينة بيروت بطريقة جدي سيد العارفين وشيخ الصالحين الإمام الكبير والعارف الشهير محيي السنة والدين السيد أحمد الرفاعي الحسيني الحسني الأنصاري رضي الله عنه إلخ اه. وأذن له بأخذ العهد على المريدين وإعطائها، وبالطريقة القادرية من الشيخ أحمد الطيب السوداني والشيخ أحمد العزّيني وغيرهما،

(١) عن نسخة خطية من الإجازة في مكتبتنا.

(٢) عن نسخة خطية من الإجازة في مكتبتنا.

وبالطريقة النقشبندية من الشيخ المشهور علي مرتضى المُلتاني الباكستاني بعد أن اجتمع به في المدينة المنورة ومن الشيخ عبد الغفور الأفغاني، وبغيرها من الطرق. أثنى عليه محدث المغرب الشيخ عبد الله الغماري دفين طنجة رحمه الله تعالى^(١)، وأخوه المحدث الشيخ عبد العزيز الغماري رحمه الله تعالى ووَصَفَهُ بالعدالة والشهرة بالتمسك بالدين وبالمؤلفات النافعة^(٢)، والمحدث الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي دفين ماو في ناحية أعظم كَرِه من بلاد الهند^(٣)، وغيرهم كثير من مشايخ البلاد الإسلامية. كان رحمه الله ورعًا متواضعًا مقبلاً على العبادة لا يفتر لسانه عن ذكر الله زاهداً طيب السريّة لا تكاد تجد له لحظة إلا وهو يشغلها بقراءة أو ذكر أو صلاة أو تدريس أو وعظ وإرشاد متمسكاً بالكتاب والسنة حاضر الذهن قوي الحجة حكيماً شديداً النكير على من خالف الشرع وذا همّة عالية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. توفي رضي الله عنه فجر يوم الثلاثاء في الثاني من رمضان سنة تسع وعشرين بعد الأربعمائة والألف. رحمه الله رحمة واسعة وجزاه عنا كل خير.

C

^(١) انظر كتابه إتقان الصنعة في تحقيق معنى البدعة.

^(٢) عن رسالة بخط الشيخ عبد العزيز في مكتبته.

^(٣) انظر رسالة الشيخ حبيب الرحمن بخطه في مكتبة عبد الله البارودي.

,



الصراطُ المستقيمُ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [سورة الحشر]. وقال علي رضي الله عنه وكرَّم وجهه: "اليومَ العملُ وغداً الحساب"، رواه البخاريُّ في كتاب الرِّقاق.

أعظمُ حقوقِ الله على عباده

اعلم أنَّ أعظمَ حقوقِ الله تعالى على عباده هو توحيدُه تعالى وأن لا يُشركَ به شيءٌ، لأنَّ الإشراكَ بالله هو أكبرُ ذنبٍ يقتَرِفُه العبدُ وهو الذَّنْبُ الذي لا يغفرُه الله ويغفرُ ما دُونَ ذَلِكَ لمن يشاء. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [سورة النساء].

وكذلك جميعُ أنواعِ الكُفْرِ لا يغفرُها الله لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [سورة محمد].

وقد قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنَّ محمداً عبده ورسوله وأنَّ عيسى عبدُ الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه والجنة حقُّ والنار حقُّ أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»، رواه البخاري ومسلم. وفي حديثٍ آخر: «فإنَّ الله حرَّم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجهَ الله» رواه البخاري.

ويجبُ قرْنُ الإيمانِ برسالةِ محمدٍ بشهادةٍ أن لا إلهَ إلا الله وذلك أقلُّ شَيْءٍ يحصلُ به النجاةُ من الخلودِ الأبديِّ في النارِ.

معنى الشهادتين

فمعنى شهادةٍ أن لا إلهَ إلا الله إجمالاً أعترفُ بلساني وأعتقدُ وأدعُن بقلبي أنَّ المعبودَ بحقٍّ هو الله تعالى فقط.

ومعنى شهادةٍ أنَّ محمدًا رسولُ الله أعترفُ بلساني وأدعُن بقلبي أنَّ سيِّدنا محمدًا ﷺ مرسلٌ من عندِ الله إلى كافةِ العالمينَ من إنسٍ وجرٍّ. صادقٌ في كلِّ ما يبلِّغُه عن الله تعالى ليؤمنُوا بشريعتهِ ويتَّبِعُوهُ.

والمرادُ بالشهادتين نفْيُ الألوهيةِ عمَّا سوى الله وإثباتُها لله تعالى. مع الإقرارِ برسالةِ سيِّدنا محمدٍ ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ [سورة الفتح].
فهذه الآيةُ صريحةٌ في تكفيرٍ من لم يؤمنَ بمحمدٍ ﷺ فمن نازعَ في هذا الموضوعِ يكونُ قد عاندَ القراءَ ومن عاندَ القراءَ كفرَ.

وأجمعَ الفقهاءُ الإسلاميونَ على تكفيرٍ من دانَ بغيرِ الإسلامِ. وعلى تكفيرٍ من لم يكفِّرهُ أو شكَّ أو توقَّفَ كأن يقولَ أنا لا أقولُ إنَّه كافرٌ أو غيرُ كافرٍ.

واعلم باستيقان أنه لا يصح الإيمان والإسلام ولا تقبل الأعمال الصالحة بدون الشهادتين بلفظ أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله أو ما في معناهما ولو بغير اللغة العربية.

ويكفي لصحة الإسلام النطق مرة في العمر ويبقى وجوبها في كل صلاة لصحة الصلاة، هذا فيمن كان على غير الإسلام ثم أراد الدخول في الإسلام. وأما من نشأ على

الإسلام وكان يعتقد الشهادتين فلا يشترط في حقه النطق بهما بل هو مسلم لو لم ينطق.

وقال ﷺ: «قال الله تعالى: وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه» حديث قدسي رواه البخاري. وأفضل وأول فرض هو الإيمان بالله ورسوله. واعتقاد أن لا إله إلا الله فقط لا يكفي ما لم يقرن باعتقاد أن محمداً رسول الله.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۚ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [سورة آل عمران] أي لا يحب الله من تولى عن الإيمان بالله والرسول لكفرهم والمراد بطاعة الله والرسول في هذه الآية الإيمان بهما.

فهذا دليل على أن من لم يؤمن بالله ورسوله محمد ﷺ فهو كافر وأن الله تعالى لا يحبه لكفره.

فمن قال إن الله يحب المؤمنين والكافرين لأنه خلق الجميع فقد كذب القراءان فيقال له الله خلق الجميع لكن لا يحب الكل.

الْفَرَضُ عَلَى كُلِّ مَكْلَفٍ

واعلم أن النطق بالشهادتين بعد البلوغ فرض على كل مكلف مرة واحدة في عمره بنية الفرض عند المالكية لأنهم لا يوجبون التحيات في الصلاة إنما هم يعتبرونها سنة وعند غيرهم كالشافعية والحنابلة تجب في كل صلاة لصحة الصلاة.

لا دين صحيح إلا الإسلام

الدين الحق عند الله الإسلام قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [سورة آل عمران]، وقال تعالى أيضاً: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [سورة آل عمران].

فكلُّ الأنبياء مسلمون فمن كان متبعا لموسى ﷺ فهو مسلم موسى، ومن كان متبعا لعيسى ﷺ فهو مسلم عيسى، ويصح أن يقال لمن اتبع محمدا ﷺ مسلم محمدي. والإسلام هو الدين الذي رضيَهُ الله لعباده وأمرنا باتباعه. ولا يُسمَّى الله مسلماً كما تلفظ به بعض الجهال.

فقد يما كان البشر جميعهم على دين واحد هو الإسلام. إنما حدث الشرك والكفر بالله تعالى بعد النبي إدريس.

فكان نوح أول نبي أرسل إلى الكفار يدعو إلى عبادة الله الواحد الذي لا شريك له. وقد حذر الله جميع الرسل من بعده من الشرك.

فقام سيدنا محمد ﷺ بتجديد الدعوة إلى الإسلام بعد أن انقطع فيما بين الناس في الأرض مؤيِّداً بالمعجزات الدالة على نبوته. فدخل البعض في الإسلام. وجحد بنوته أهل الضلال الذين منهم من كان مشركاً قبلاً كفرقة من اليهود عبَدَت عُزيراً فازدادوا كفراً إلى كفرهم. ءامنَ به بعض أهل الكتاب اليهود والنصارى كعبد الله بن سلام عالم اليهود بالمدينة، وأصحمة النجاشي ملك الحبشة وكان نصرانياً ثم اتبع الرسول اتباعاً كاملاً ومات في حياة رسول الله صلى عليه الرسول صلاة الغائب يوم مات. أوحى الله إليه بموته. ثم كان يرى على قبره في الليالي نوراً وهذا دليل أنه صار مسلماً كاملاً ولياً من أولياء الله رضي الله عنه.

والمبدأ الإسلامي الجامع لجميع أهل الإسلام عبادة الله وحده.

حُكْمٌ مِنْ يَدَّعِي الْإِسْلَامَ لَفْظًا وَهُوَ مُنَاقِضٌ لِلْإِسْلَامِ مَعْنَى

هناك طوائف عديدة كذّبت الإسلام معنًى ولو انتموا للإسلام بقولهم الشهادتين أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله وصلوا وصاموا لأتّهم ناقضوا الشهادتين باعتقاد ما ينافيهما فإنّهم خرجوا من التوحيد بعبادتهم لغير الله فهم كفّار ليسوا مسلمين كالذين يعتقدون ألوهية علي بن أبي طالب أو الحَضِر أو الحاكم بأمر الله وغيرهم أو بما في حكم ذلك من القول والفعل.

وحُكْمٌ مِنْ يَجْحَدُ الشَّهَادَتَيْنِ التَّكْفِيرُ قَطْعًا وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا لَا يَنْقَطِعُ فِي الْآخِرَةِ عَنْهُ الْعَذَابُ إِلَى مَا لَا نَهَايَةَ لَهُ وَمَا هُوَ بِخَارِجٍ مِنَ النَّارِ.

ومن أدّى أعظم حقوق الله بتوحيده تعالى أي ترك الإشراك به شيئًا وتصديق رسوله ﷺ لا يخلد في نار جهنم خلودًا أبدًا وإن دخلها بمعاصيه ومآله في النهاية على أي حال كان الخروج من النار ودخول الجنة بعد أن يكون قد نال العقاب الذي يستحق إن لم يعف الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «يُخْرِجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَفِي قَلْبِهِ وَزَنَ ذَرَّةً مِنْ إِيْمَانٍ» رواه البخاري.

وأما الذي قام بتوحيده تعالى واجتنب معاصيه وقام بأوامره فيدخل الجنة بلا عذاب حيث النعيم المقيم الخالد. بدلالة الحديث القدسي الذي رواه أبو هريرة قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر». وقال أبو هريرة: "إقرؤا إن شئتم قوله تعالى:

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة السجدة] . رواه البخاري في الصحيح.

بيان أقسام الكفر

واعلم يا أخي المسلم أن هناك اعتقادات وأفعالاً وأقوالاً تنقض الشهادتين وتوقع في الكفر لأن الكفر ثلاثة أنواع : كفر اعتقادي وكفر فعلي وكفر لفظي، وذلك باتفاق المذاهب الأربعة كالنووي وابن المُقري من الشافعية وابن عابدين من الحنفية والبُهوتي من الحنابلة والشيخ محمد عَليش من المالكية وغيرهم فليُنظرها من شاء. وكذلك غير علماء المذاهب الأربعة من المجتهدين الماضين كالأوزاعي فإنه كان مجتهداً له مذهب كان يُعمل به ثم انقرض أتباعه.

الكفر الاعتقادي: مكانه القلب كنفي صفة من صفات الله تعالى الواجبة له إجماعاً كوجوده وكونه قادراً وكونه سميعاً بصيراً أو اعتقاد أنه نور بمعنى الضوء أو أنه روح، قال الشيخ عبد الغني النابلسي: من اعتقد أن الله ملأ السموات والأرض أو أنه جسم قاعد فوق العرش فهو كافر وإن زعم أنه مسلم.

الكفر الفعلي: كاللقاء المصحف في القاذورات قال ابن عابدين: ولو لم يقصد الاستخفاف لأن فعله يدل على الاستخفاف. أو أوراق العلوم الشرعية، أو أي ورقة عليها اسم من أسماء الله تعالى مع العلم بوجود الاسم فيها. ومن علق شعار الكفر على نفسه من غير ضرورة فإن كان بنية التبرك أو التعظيم أو الاستحلال كان مرتداً.

الكفر القولي: كمن يشتم الله تعالى بقوله والعياذ بالله من الكفر: (أخت ربك)، أو (ابن الله)، يقع الكفر هنا ولو لم يعتقد أن لله أختاً أو ابناً.

ولو نادى مسلم مسلماً آخر بقوله : يا كافر بلا تأويل كفر القائل لأنه سمي الإسلام كُفراً. ويكفر من يقول لمسلم يا يهودي أو أمثالها من العبارات بنية أنه ليس بمسلم إلا إذا قصد أنه يشبه اليهود فلا يكفر.

ولو قال شخص لزوجته (أنت أحب إلي من الله) أو (أعبدك) كفر إن كان يفهم منها العبادة التي هي خاصة لله تعالى.

ولو قال شخص لآخر (الله يظلمك كما ظلمتني) كفر القائل لأنه نسب الظلم لله تعالى، إلا إذا كان يفهم أن معنى يظلمك ينتقم منك فلا نكفره بل ننهاه.

ولو قال شخص لشخص آخر والعياذ بالله (يلعن ربك) كفر. وكذلك يكفر مكن يقول للمسلم (يلعن دينك) قال بعض الفقهاء إن قصد سيرته فلا يكفر. قال بعض الحنفية: يكفر إن أطلق، أي إن لم يقصد سيرته ولا قصد دين الإسلام.

وكذلك يكفر من يقول والعياذ بالله (فلان زاح ربي) لأن هذا فيه نسبة الحركة والمكان لله.

وكذلك يكفر من يقول والعياذ بالله (قد الله) يقصد المماثلة. وكذلك يكفر من نسب إلى الله جارحة من الجوارح كقول بعض السفهاء (يا زب الله) وهو لفظ صريح في الكفر لا يقبل فيه التأويل.

وكذلك يكفر من يقول (أنا رب من عمل كذا). وكذلك يكفر من يقول والعياذ بالله: (خوت ربي) ^(١).

أو قال للكافر (الله يكرمك) بقصد أن يحبه الله كفر لأن الله تعالى لا يحب الكافرين

كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [سورة آل عمران].

(١) أي حتن.

وكذلك القول للكافر (الله يغفر لك)، إن قصد أن الله تعالى يغفر له وهو على كفره إلى الموت.

وكذلك يكفر من قال لمن مات على الكفر (الله يرحمه) بقصد أن يريحه في قبره لا بقصد أن يخفف عنه عذاب القبر من غير أن ينال راحة فإنه إن قال ذلك بهذا القصد فيحتمل أنه لا يكفر.

ويكفر من يستعمل كلمة الخلق مضافة للناس في الموضع الذي تكون فيه بمعنى الإبراز من العدم إلى الوجود، كأن يقول شخص ما: (أخلق لي كذا كما خلقتك الله).
ويكفر من يشتم عزرائيل عليه السلام كما قال ابن فرحون (في تبصرة الحكام)، أو أي ملك من الملائكة عليهم السلام.

وكذلك من يقول (أنا عايف الله)، أي كرهت الله.
ويكفر من يقول (الله لا يتحمل فلاناً) إذا فهم العجز أو أن الله ينزعج منه، أما إذا كان يفهم من هذه الكلمة أن الله يكرهه فلا يكفر.
ويكفر من يقول: (يلعن سماء ربك)، لأنه استخف بالله تعالى.

وكذلك من يسمي المعابد الدينية للكفار (بيوت الله)، وأما قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَدَّمَتْ صَوْمِعُ وَبَيْعٌ وَصَلَوْتُ وَمَسْجِدُ﴾ [سورة الحج] فالمراد به معابد اليهود والنصارى لما كانوا على الإسلام لأنها كمساجد أمة محمد حيث أن الكل بني لتوحيد الله وتمجيده لا لعبادة غير الله فقد سمي الله المسجد الأقصى مسجداً وهو ليس من بناء أمة محمد. فليترك الله امرؤ وليحذر أن يسمي ما بني للشرك بيوت الله ومن لم يتق الله قال ما شاء.

وكذلك من حدث حديثاً كذباً وهو يعلم أنه كذب فقال: (الله شهيد على ما أقول) بقصد أن الله يعلم أن الأمر كما قلت لأنه نسب الجهل لله تعالى لأن الله يعلم أنه كاذب ليس صادقاً.

وكذلك لا يجوز القول (كل واحد على دينه الله يعينه) بقصد الدعاء للفريقين. ويكفر من يقول معمماً كلامه: (الكلب أحسن من بني آدم). أو من يقول (العرب جرب)، أما إذا خصص كلامه لفظاً أو بقرينة الحال كقوله اليوم العرب فسدوا ثم قال العرب جرب فلا يكفر. ويكفر من يسمي الشيطان بـ(بسم الله الرحمن الرحيم) لا إن ذكر البسملة بنية التعوذ بالله من شره.

وهناك بعض الشعراء والكتاب يكتب كلمات كفرية كما كتب أحدهم (هرب الله) فهذا من سوء الأدب مع الله الموقع في الكفر وقد قال القاضي عياض في كتابه الشفا: "لا خلاف أن ساب الله تعالى من المسلمين كافر" اهـ.

ويكفر من يستحسن هذه الأقوال والعبارات وما أكثر انتشارها في مؤلفات عديدة. وسوء الأدب مع الرسول ﷺ بالاستهزاء بحال من أحواله أو بعمل من أعماله كفر. والاستهزاء بما كتب فيه شيء من القرآن الكريم، أو الأنبياء عليهم السلام، أو بشعائر الإسلام أو بحكم من أحكام الله تعالى كفر قطعاً.

وكذلك استحسان الكفر من غيره كفر لأن الرضا بالكفر كفر. ولا يكفر من نقل عن غيره كفرية حصلت منه من غير استحسان لها بقوله: قال فلان كذا ولو آخر صيغة قال إلى آخر الجملة فيشترط أن يكون في نيته ذكر أداة الحكاية مؤخراً عن الابتداء.

ما يستثنى من ألفاظ الكفر اللفظي

يستثنى من الكفر اللفظي:

حالة سبق اللسان: أي أن يتكلم بشيء من ذلك من غير إرادة بل جرى على لسانه ولم يقصد أن يقوله بالمرّة.

وحالة غيبوبة العقل: أي عدم صحو العقل.

وحالة الإكراه: فمن نطق بالكفر بلسانه مكرهاً بالقتل ونحوه وقلبه مطمئن بالإيمان فلا يكفر قال تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ﴾ (سورة النحل).

وحالة الحكاية لكفر الغير: فلا يكفر الحاكي كفر غيره على غير وجه الرضا والاستحسان، ومستندنا في استثناء مسألة الحكاية قول الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ (سورة التوبة)، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ (سورة المائدة).

ثم الحكاية المانعة لكفر حاكي الكفر إما أن تكون في أول الكلمة التي يحكيها عمن كفر، أو بعد ذكره الكلمة عقبها وقد كان ناوياً أن يأتي بأداة الحكاية قبل أن يقول كلمة الكفر، فلو قال: المسيح ابن الله قول النصارى، أو قالته النصارى، فهي حكاية مانعة للكفر عن الحاكي.

وحالة كون الشخص متأولاً باجتهاده في فهم الشرع: فإنه لا يكفر المتأول إلا إذا كان تأوله في القطعيات فأخطأ فإنه لا يعذر كتأول الذين قالوا بقدوم العالم وأزليته كابن تيمية.

وأما مثال من لا يكفر ممن تأول فهو كتأول الذين منعوا الزكاة في عهد أبي بكر بأن الزكاة وجبت في عهد الرسول لأن صلاته كانت عليهم سكناً لهم وطهرة - أي رحمة وطمأنينة - وأن ذلك انقطع بموته فإن الصحابة لم يكفروهم لذلك لأن هؤلاء فهموا من قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [سورة التوبة] أن المراد من قوله خذ أي يا محمد الزكاة لتكون إذا دفعوها إليك سكناً لهم، وأن هذا لا يحصل بعد وفاته فلا يجب عليهم دفعها لأنه قد مات وهو المأمور بأخذها منهم، ولم يفهموا أن الحكم عام في حال حياته وبعد موته. وكذلك الذين فسروا قول الله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ [سورة المائدة] بأنه تخيير وليس تحريماً للخرم لأن عمر ما كفرهم وإنما قال: اجلدوهم ثمانين ثمانين، ثم إن عادوا فاقتلوهم (اهـ. رواه ابن أبي شيبة).

إنما كفروا الآخرين الذين ارتدوا عن الاسلام لتصديقهم لمسيلمة الكذاب الذي ادعى الرسالة، فمقاتلتهم هؤلاء الذين تأولوا منع الزكاة على هذا الوجه كان لأخذ الحق الواجب عليهم في أموالهم، وذلك كقتال البغاة فإنهم لا يقاتلون لكفرهم بل يقاتلون لردهم إلى طاعة الخليفة، كالذين قاتلهم سيدنا علي في الوقائع الثلاث: وقعة الجمل، ووقعة صفين مع معاوية، ووقعة النهروان مع الخوارج، على أن من الخوارج صنفا هم كفار حقيقة فأولئك لهم حكمهم الخاص.

قال الحافظ أبو زرعة العراقي في نكته: "وقال شيخنا البلقيني: ينبغي أن يقال بلا تأويل ليخرج البغاة والخوارج الذين يستحلون دماء أهل العدل وأموالهم ويعتقدون تحريم دماءهم على أهل العدل، والذين أنكروا وجوب الزكاة عليهم بعد رسول الله ﷺ بالتأويل فإن الصحابة رضي الله عنهم لم يكفروهم" اهـ. وهذا شاهد من منقول المذهب لمسألة التأويل بالاجتهاد.

ومما يشهد من المنقول في مسألة الاجتهاد بالتأول وحكاية الكفر قول شمس الدين الرملي في شرحه على منهاج الطالبين في أوائل كتاب الردة في شرح قول النووي: الردة قطع الاسلام بنية أو قول كفر ما نصه: فلا أثر لسبق لسان أو إكراه، واجتهاد، وحكاية كفر.

وقول المُحَشِّي - أي صاحب الحاشية على الشرح - نور الدين علي الشبراملسي المتوفى سنة ألف وسبعة وثمانين، عند قول الرملي: "واجتهاد" ما نصه: أي لا مطلقا كما هو ظاهر لما سيأتي من نحو كفر القائلين بقدوم العالم مع أنه بالاجتهاد والاستدلال. قال المُحَشِّي الآخر على الرملي أحمد بن عبد الرزاق المعروف بالمغربي الرشدي المتوفى سنة ألف وستة وتسعين قوله: "واجتهاد" أي فيما لم يقدّم الدليل القاطع على خلافه بدليل كفر نحو القائلين بقدوم العالم مع أنه بالاجتهاد، ومن هنا يعلم أنه ليس كل متأول يمنع عنه تأويله التكفير، فليجعل طالب العلم قول الرشدي المذكور فيما لم يقدّم دليل قاطع على ذكرٍ - يعني أن يكون مستحضرا لهذه الكلمة لأنها مهمّة -، لأن التأول مع قيام الدليل القاطع لا يمنع التكفير عن صاحبه.

وقولنا في الخوارج باستثناء بعضهم من الذين لم يكفروا لثبوت ما يقتضي التكفير في بعضهم كما يؤيده قول بعض الصحابة الذين رووا أحاديث الخوارج.

وأما ما يروى عن سيدنا علي من أنه قال: (إخواننا بغوا علينا) فليس فيه حجة للحكم على جميعهم بالإسلام، لأنه لم يثبت إسنادا عن علي، وقد قطع الحافظ المجتهد ابن جرير الطبري بتكفيرهم وغيره، وحمل ذلك على اختلاف أحوال الخوارج بأن منهم من وصل إلى حد الكفر ومنهم من لم يصل، وهذه المسألة بعضهم عبر عنها بالاجتهاد وبعضهم عبر عنها بالتأويل، فمنهم من عبر بالتأويل الحافظ الفقيه الشافعي سراج الدين

البلقيني الذي قال فيه صاحب القاموس: (علامة الدنيا)، وعبر بعض شراح منهاج الطالبين بالاجتهاد وكلتا العبارتين لا بد لهما من قيد ملحوظ.

ومن هنا يعلم أنه ليس كل متأول يمنع عنه تأويله التكفير فلا يظن ظان أن ذلك مطلق لأن الإطلاق في ذلك انحلال ومروق من الدين.

ألا ترى أن كثيرا من المنتسبين إلى الإسلام المشتغلين بالفلسفة مرقوا من الدين باعتقادهم القول بأزلية العالم اجتهادا منهم ومع ذلك أجمع المسلمون على تكفيرهم كما ذكر ذلك المحدث الفقيه بدر الدين الزركشي في شرح جمع الجوامع فإنه قال بعد أن ذكر الفريقين منهم الفريق القائل بأزلية العالم بمادته وصورته والفريق القائل بأزلية العالم بمادته أي بجنسه فقط ما نصه: "اتفق المسلمون على تضليلهم وتكفيرهم".

وكذلك المرجئة القائلون بأنه لا يضر مع الإيمان ذنب كما لا تنفع مع الكفر حسنة إنما قالوا ذلك اجتهادا وتأويلا^(١) لبعض النصوص على غير وجهها فلم يعذروا، وكذلك ضل فرق غيرهم وهم منتسبون إلى الإسلام كان زيغهم بطريق الاجتهاد بالتأويل، نسأل الله الثبات على الحق.

قاعدة: اللفظ الذي له معنيان أحدهما نوع من أنواع الكفر والآخر ليس كفرا، وكان المعنى الذي هو كفر ظاهرا لكن ليس صريحا، لا يكفر قائله حتى يعرف منه أي المعنيين أراد، فإن قال أردت المعنى الكفري حكم عليه بالكفر وأجري عليه أحكام الردة وإلا فلا يحكم عليه بالكفر. وكذلك إن كان اللفظ له معان كثيرة وكان كل معانيه كفرا وكان معنى واحد منها غير كفر لا يكفر إلا أن يعرف منه إرادة المعنى الكفري، وهذا هو الذي ذكره بعض العلماء الحنفيين في كتبهم، أما ما دام جازما بأنه ما حصل منه كفر لكن يرد على باله خلاف ذلك فلا يجب عليه أن يتشهد ولا يجب عليه

(١) فإنهم تأولوا هذه الآية ﴿وَلَا تُجْرِي إِلَّا الْكُفْرُ﴾ [سورة ساء] حملوها على أن معناها لا عقوبة في الآخرة إلا على كافر. وهذا التأويل لا ينفعهم.

تجديد النكاح بالشك لكن يستحب. وأما ما يقوله بعض الناس من أنه إذا كان في الكلمة تسعة وتسعون قولاً بالتكفير وقول واحد بترك التكفير أخذ بترك التكفير فلا معنى له، ولا يصح نسبة ذلك إلى مالك ولا إلى أبي حنيفة كما نسبته سيد سابق إلى مالك، وهو شائع على السنة بعض العصريين فليتقوا الله. وكذلك إن كان اللفظ له معان كثيرة وكان كل معانيه كفراً وكان معنى واحد منها غير كفر لا يكفر إلا أن يعرف منه إرادة المعنى الكفري، وهذا هو الذي ذكره بعض العلماء الحنفيين في كتبهم. وأما ما يقوله بعض الناس من أنه إذا كان في الكلمة تسعة وتسعون قولاً بالتكفير وقول واحد بترك التكفير أخذ بترك التكفير فلا معنى له، ولا يصح نسبة ذلك إلى مالك ولا إلى أبي حنيفة كما نسب سيد سابق شبه ذلك إلى مالك، وهو شائع على السنة بعض العصريين فليتقوا الله.

قال العلماء: أما الصريح أي الذي ليس له إلا معنى واحداً يقتضي التكفير فيحكم على قائله بالكفر كقول (أنا الله)، حتى لو صدر هذا اللفظ من ولي في حالة غيبوبة عقله يعزر ولو لم يكن هو مكلفاً تلك الساعة؛ قال ذلك عز الدين بن عبد السلام، وذلك لأن التعزير يؤثر في من غاب عقله كما يؤثر في الصاحي العاقل وكما يؤثر في البهائم. والكفر لا يصدر من ولي في حال حضور عقله إلا أن يسبق لسانه أو يغيب عقله، لأن الولي محفوظ من الكفر بخلاف المعصية الكبيرة أو الصغيرة فإن ذلك يجوز على الولي لكن لا يستمر عليه بل يتوب عن قرب. وقد يحصل من الولي معصية كبيرة قبل موته بقليل لكن لا يموت إلا وقد تاب كطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام رضي الله عنهما فإنهما خرجا على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه بوقوفهما مع الذين قاتلوه في البصرة فذكر عليٌّ كُلاًّ منهما حديثاً، أما الزبير فقال له ألم يقل لك رسول الله: «إنك لتقاتلن عليّاً وأنت ظالمٌ له» فقال نسيت، فذهب منصرفاً عن قتاله ثم لحقه في

طريقه رجلٌ من جيش عليّ فقتله. فتاب بتذكير عليّ له فلم يمت إلا تائباً. وأما طلحة فقال له عليّ ألم يقل رسول الله ﷺ: «من كنت مولاه فعلي مولاه» فذهب منصرفاً فضربه مروان بن الحكم فقتله. وهو أيضاً تاب وندم عند ذكر عليّ له هذا الحديث. فكل منهما ما مات إلا تائباً. وكلا الحديثن صحيح بل الحديث الثاني متواتر. وقد ذكر الإمام أبو الحسن الأشعري أنّ طلحة والزبير مغفور لهما لأجل البشارة التي بشرهما رسول الله بها مع ثمانية آخرين في مجلس واحد فهذا من الإمام أبي الحسن الأشعري إثباتٌ أنهما أئمة. وكذلك قال في حق عائشة لأجل أنها مبشرة أيضاً وكانت ندمت ندماً شديداً يبتلّ من دموعها خمارها. وهذا متواتر أيضاً. وقال في غيرهما من مقاتلي عليّ من أهل وقعة الجمل ومن أهل صفين الذين قاتلوا مع معاوية عليّاً "محوّز غفرانه والعفو عنه" كما نقل ذلك الإمام أبو بكر بن فورك عن أبي الحسن الأشعري في كتابه مجرد مقالات الأشعري، وابن فورك تلميذ تلميذ أبي الحسن الأشعري وهو أبو الحسن الباهلي رضي الله عنهم. وما يظن بعض الجهلة من أنّ الوليّ لا يقع في معصية فهو جهل فظيع. فهؤلاء الثلاثة طلحة والزبير وعائشة من أكابر الأولياء.

قال إمام الحرمين الجويني: اتفق الأصوليون على أن من نطق بكلمة الردة - أي الكفر - وزعم أنه أضمر تورية^(١) كفر ظاهراً وباطناً وأقرهم على ذلك أي فلا ينفعهم التأويل البعيد كالذي يقول: (يلعن رسول الله) ويقول قصدي برسول الله الصواعق.

وقد عد كثير من الفقهاء كالفقيه الحنفي بدر الرشيد وهو قريب من القرن الثامن الهجري أشياء كثيرة فينبغي الإطلاع عليها فإن من لم يعرف الشر يقع فيه فليحذر، فقد ثبت عن أحد الصحابة أنه أخذ لسانه وخاطبه: يا لسان قل خيراً تغنم، واسكت

(١) أي أنه أراد به معنى بعيداً عن المعنى المتبادر من الكلمة.

عن شر تسلم، من قبل أن تندم، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أكثر خطايا ابن آدم من لسانه»^(١)، ومن هذه الخطايا الكفر والكبائر.

وفي حديث آخر للرسول ﷺ «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يهوي بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب» رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة.

فائدة مهمة

حكم من يأتي بإحدى أنواع هذه الكفريات هو أن تحبط أعماله الصالحة وحسناته جميعها، فلا تحسب له ذرة من حسنة كان سبق له أن عملها من صدقة أو حج أو صيام أو صلاة ونحوها. إنما تحسب له الحسنات الجديدة التي يقوم بها بعد تجديد إيمانه قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [سورة المائدة].

وإذا قال أستغفر الله قبل أن يجدد إيمانه بقوله أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله وهو على حالته هذه فلا يزيده قوله استغفر الله إلا إثما وكفرا، لأنه يكذب قول الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [سورة محمد]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ [سورة النسا].

روى ابن حبان عن عمران بن الحصين: أتى رسول الله ﷺ رجلاً فقال يا محمد عبد المطلب خير لقومه منك كان يطعمهم الكبد والسنام وأنت تنحرهم فقال رسول الله ما شاء الله - معناه رد عليه -، فلما أراد أن ينصرف قال: ما أقول، قال: «قل اللهم قني شر نفسي واعزم لي على أرشد أمري» فانطلق الرجل ولم يكن أسلم، ثم قال لرسول الله إني أتيتك فقلت علمني فقلت: «قل اللهم قني شر نفسي واعزم لي على أرشد

^(١) رواه الطبراني بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن مسعود.

أمري»، فما أقول الآن حين أسلمت قال: «قل اللهم قني شر نفسي واعزم لي على أرشد أمري اللهم اغفر لي ما أسررت وما أعلنت وما أخطأت وما عمدت وما جهلت».

ومن أحكام الردة أن يفسخ نكاح زوجته أي عقد الزواج الشرعي فتكون العلاقة بينهما بعد كفره علاقة غير شرعية فجماعه لها زنى، ولا فرق بين أن يكفر الزوج وبين أن تكفر الزوجة.

عودٌ إلى تقسيم الكفر لزيادة فائدة

اعلم أن الكفر ثلاثة أبواب: إما تشبيه، أو تكذيب، أو تعطيل. أحدهما التشبيه: أي تشبيه الله بخلقه كمن يصفه بالحدوث أو الفناء أو الجسم أو اللون أو الشكل أو الكمية أي مقدار الحج، أما ما ورد في الحديث «إن الله جميل» فليس معناه جميل الشكل وإنما معناه جميل الصفات أو محسن.

ثانيها التكذيب: أي تكذيب ما ورد في القرآن الكريم أو ما جاء به الرسول ﷺ على وجه ثابت وكان مما علم من الدين بالضرورة كاعتقاد فناء الجنة والنار، أو أن الجنة لذات غير حسية، وأن النار عالم معنوية، أو إنكار بعث الأجساد والأرواح معاً أو إنكار وجوب الصلاة أو الصيام أو الزكاة، أو اعتقاد تحريم الطلاق أو تحليل الخمر وغير ذلك مما ثبت بالقطع وظهر بين المسلمين.

وهذا بخلاف من يعتقد بوجوب الصلاة عليه مثلاً لكنه لا يصلي فإنه يكون عاصياً لا كافراً كمن يعتقد عدم وجوبها عليه.

ثالثها التعطيل: أي نفي وجود الله وهو أشد الكفر.

وحكم من يشبه الله تعالى بخلقه التكفير قطعاً. والسبيل إلى صرف التشبيه اتباع هذه القاعدة القاطعة: "مهما تصورت ببالك فالله بخلاف ذلك" وهي مجمع عليها عند أهل الحق، وهي مأخوذة من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى].

وملاحظة ما روي عن الصديق (شعر من البسيط):

العَجْزُ عَنْ دَرَكِ الْإِذْرَاكِ إِذْرَاكَ وَالبَحْثُ عَنْ ذَاتِهِ كُفْرٌ وَإِشْرَاكَ^(١)

وقول بعضهم لا يعرف الله على الحقيقة إلا الله تعالى. ومعرفتنا نحن بالله ليست على سبيل الإحاطة بل معرفة ما يجب لله تعالى كوجوب القدم له. وتنزيهه عما يستحيل عليه تعالى كاستحالة الشريك له وما يجوز في حقه تعالى كخلق شيء وتركه. قال الإمام الرافعي^(٢): "غاية المعرفة بالله الإيقان بوجوده تعالى بلا كيفية ولا مكان".

فائدة

قَالَ الْعَزَالِيُّ فِي إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ: إِنَّهُ (أَيَّ اللَّهُ) أَزَلِيٌّ لَيْسَ لَوْجُودِهِ أَوَّلٌ وَلَيْسَ لَوْجُودِهِ ءَاخِرٌ. وَإِنَّهُ لَيْسَ بِجَوْهَرٍ يَتَحَيَّرُ بَلْ يَتَعَالَى وَيَتَقَدَّسُ عَنْ مُنَاسَبَةِ الْحَوَادِثِ وَإِنَّهُ لَيْسَ بِجِسْمٍ مُؤَلَّفٍ مِنْ جَوَاهِرٍ، وَلَوْ جَازَ أَنْ يُعْتَقَدَ أَنَّ صَانِعَ الْعَالَمِ جِسْمٌ لَجَازَ أَنْ تُعْتَقَدَ الْأُلُوهِيَّةُ لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ أَوْ لَشَيْءٍ ءَاخَرَ مِنْ أَقْسَامِ الْأَجْسَامِ فَإِذَا لَا يُشَبَّهُ شَيْئًا وَلَا يُشَبَّهُ شَيْءٌ بَلْ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ الَّذِي لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَأَلَى يُشَبَّهُ الْمَخْلُوقُ خَالِقَهُ وَالْمُقَدَّرُ^(٣) مُقَدَّرُهُ وَالْمَصَوَّرُ مُصَوَّرُهُ.

^(١) رواه الفقيه المحدث بدر الدين الزركشي الشافعي.

^(٢) الرافعي هو أحمد بن أبي الحسن عليّ وكان ممن جمع بين العلم والعمل والزهد. كان فقيهاً محدثاً مفسراً ألف تأليف منها كتاب شرح التنبيه في الفقه الشافعي وألف في الحديث أربعين حديثاً بالإسناد، توفي سنة خمس مائة وثمانية وسبعين. ألف في ترجمته الإمام أبو القاسم الرافعي تأليفاً سماه "سواد العينين في مناقب أبي العلمين".

^(٣) الخلق المُقَدَّر أي له كمية هذا شكله مرتع وهذا شكله غير ذلك وهذا حار وهذا بارد.

فليس هذا الكلام الذي عابه العلماء وإنما عاب السلفُ كلامَ المُبتدعةِ في الاعتقادِ كالمشبهةِ والمعتزلةِ والخوارجِ وسائرِ الفرقِ التي شذت عما كان عليه الرسولُ والصحابةُ الذين اختلفوا إلى اثنتينِ وسبعينَ فرقةً كما أخبرَ الرسولُ بذلك في حديثه الصحيح الثابت الذي رواه ابنُ حبانَ بإسناده إلى معاوية قال قال رسول الله ﷺ: «افتترقت اليهود إحدى وسبعينَ فرقةً وافتترقت النصارى على اثنتينِ وسبعينَ فرقةً وستفترقُ أمتي إلى ثلاثِ وسبعينَ فرقةً كُلُّهم في النارِ إلا واحدةً وهي الجماعة» أي السواد الأعظم. وأما علمُ الكلام الذي يشتغلون به أهلُ السنةِ من الأشاعرةِ والماتريديةِ فقد عُمِلَ به من قبل الأشعري والماتريدي كأبي حنيفةٍ فإن له خمسَ رسائل في ذلك والإمام الشافعي كان يتقنه حتى إنه قال: أتقنَّا ذاك قبل هذا، أي أتقنَّا علمَ الكلام قبل الفقه.

الوقاية من النار

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [سورة التحريم]. وجاء في تفسير الآية أَنَّ الله يَأْمُرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلَهُمُ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ بَعْلُ الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ، وَتَعْلِيمُ أَهْلِيهِمْ ذَلِكَ^(١)، أي مَعْرِفَةُ مَا فَرَضَ اللَّهُ فِعْلَهُ أَوْ اجْتِنَابَهُ أَيْ الْوَاجِبَاتِ وَالْمُحَرَّمَاتِ وَذَلِكَ كَيْ لَا يَقَعَ فِي التَّشْبِيهِ وَالتَّمثِيلِ وَالْكُفْرِ وَالضَّلَالِ.

ذَلِكَ لِأَنَّهُ مَنْ يُشَبِّهُ اللَّهَ تَعَالَى بِشَيْءٍ مَا لَمْ تَصِحَّ عِبَادَتُهُ، لِأَنَّهُ يَعْبُدُ شَيْئًا تَحْيَلَهُ وَتَوَهَّمَهُ فِي مَحْيَلَتِهِ وَأَوْهَامِهِ، قَالَ أَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ: "لَا تَصِحُّ الْعِبَادَةُ إِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ الْمَعْبُودِ".

(١) جاء ذلك عن سيدنا علي بن أبي طالب بإسناد قوي.

مَا جَاءَ فِي بَدْءِ الْخَلْقِ

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَمَا سُئِلَ عَن بَدْءِ الْأَمْرِ: «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَكُتِبَ فِي الذِّكْرِ كُلِّ شَيْءٍ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ. أَجَابَ الرَّسُولُ ﷺ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ بِأَنَّ اللَّهَ لَا بَدَايَةَ لُجُودِهِ أَيَّ أَرْزِيٍّ وَلَا أَرْزِيٍّ سِوَاهُ، وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى فَنِي الْأَزَلِ لَمْ يَكُنْ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، وَاللَّهُ تَعَالَى خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، أَي مَخْرُجُهُ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ.

وَمَعْنَى خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ أَنَّهُ أَخْرَجَ جَمِيعَ الْمَوْجُودَاتِ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ. وَاللَّهُ تَعَالَى حَيٌّ لَا يَمُوتُ، لِأَنَّهُ لَا نِهَايَةَ لُجُودِهِ (أَي أَبَدِيٌّ)، فَلَا يَطْرَأُ عَلَيْهِ الْعَدَمُ إِذْ لَوْ جَازَ عَلَيْهِ الْعَدَمُ لاسْتَحَالَ عَلَيْهِ الْقِدَمُ (أَي الْأَرْزِيَّةُ).

وَحُكْمُ مَنْ يَقُولُ: "اللَّهُ خَلَقَ الْخَلْقَ فَمَنْ خَلَقَ اللَّهُ" التَّكْفِيرُ قَطْعًا لِأَنَّهُ نَسَبَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الْعَدَمَ قَبْلَ الْوُجُودِ، وَلَا يُقَالُ ذَلِكَ إِلَّا فِي الْحَوَادِثِ أَيِ الْمَخْلُوقَاتِ، فَاللَّهُ تَعَالَى وَاجِبُ الْوُجُودِ (أَي لَا يُتَصَوَّرُ فِي الْعَقْلِ عَدَمُهُ)، فَلَيْسَ وَجُودُهُ كَوُجُودِنَا الْحَادِثِ لِأَنَّ وَجُودَنَا بِإِيجَادِهِ تَعَالَى وَكُلُّ مَا سِوَى اللَّهِ جَائِزُ الْوُجُودِ أَي يُمَكِّنُ عَقْلًا وَجُودُهُ بَعْدَ عَدَمِ وَإِعْدَامِهِ بَعْدَ وَجُودِهِ بِالنَّظَرِ لِدَايَةِ فِي حُكْمِ الْعَقْلِ. وَاعْلَمْ أَنَّ أَقْسَامَ الْمَوْجُودِ ثَلَاثَةٌ:

الْأَوَّلُ: أَرْزِيٌّ أَبَدِيٌّ وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى فَقَطْ أَي لَا بَدَايَةَ وَلَا نِهَايَةَ لُجُودِهِ. وَحُكْمُ مَنْ يَقُولُ إِنَّ هُنَاكَ شَيْئًا أَرْزِيًّا سِوَى اللَّهِ التَّكْفِيرُ قَطْعًا وَلِذَلِكَ كَفَرَتْ الْفَلَسِيفَةُ بِاعْتِقَادِهِمُ السَّنْفِيَةَ أَنَّ الْعَالَمَ قَدِيمٌ أَرْزِيٌّ لِأَنَّ الْأَرْزِيَّةَ لَا تَصِحُّ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى فَقَطْ.

والثاني: أبديٌّ لا أزلِّي أي أنَّ له بدايةً ولا نهايةً له وهو الجنة والنار فهما مخلوقتان أي هُما بدايةً إلا أنَّه لا نهاية لهُما أي أبديتان فلا يطرأ عليهما خرابٌ أو فناءٌ لمشيئة الله بقاءهُما، أمَّا من حيثُ ذاتهما فيجوزُ عليهما الفناء عقلاً.

الثالث: لا أزلِّي ولا أبديٌّ أي أنَّ له بدايةً وله نهايةً وهو كُلُّ ما في هذه الدنيا من السموات السبع والأرض فلا بدَّ من فنائهما وفناء ما فيهما من إنسٍ وجنٍّ وملائكةٍ. واعلم أنه جرت عادة العلماء على ذكر أن الحكم العقلي ينقسم إلى ثلاث: الوجود والاستحالة والجواز، وقالوا: الواجب: ما لا يتصور عدمه وهو الله وصفاته. والمستحيل: ما لا يتصور في العقل وجوده، وقد يعبرون عنه بالمتنع. والجائز: ما يتصور في العقل وجوده وعدمه ولذلك يصفون الله بالواجب الوجود.

قَدَمُ اللَّهِ لَيْسَ زَمَانِيًّا

الله تعالى كانَ قَبْلَ الزَّمانِ وقَبْلَ المكانِ، وقَبْلَ الظُّلُماتِ وقَبْلَ النُّورِ، فَهُوَ تَعَالَى لَيْسَ مِنْ قَبِيلِ العالَمِ الكَثِيفِ كالأَرْضِ، والحَجَرِ، والكواكِبِ، والنباتِ والإنسانِ، وَلَيْسَ مِنْ قَبِيلِ العالَمِ اللَّطِيفِ كالنُّورِ، والرُّوحِ، والهواءِ، والجنِّ، والملائكةِ لمخالفته للحوادثِ، أي لمخالفته جميع المخلوقاتِ.

فإن قيل: أليس من أسمائه اللطيف؟ فالجواب: أنَّ معنى اللطيف الذي هو اسمُ الله: الرَّحِيمُ بعبادِهِ أو الذي احتجبَ عَنِ الأوهامِ فلا تُدرِكُهُ.

فلا نَظِيرَ لَهُ تَعَالَى أي لا مَثِيلَ لَهُ ولا شَبِيهَ في ذاتِهِ ولا في صِفَاتِهِ ولا في فِعْلِهِ، لأنَّه لو كانَ مُماثِلاً لمخلوقاتِهِ بوجه من الوجوه كالحجم والحركة والسكون ونحو ذلك لم يَكُنْ خالِقاً لها.

(¹) وهي إحدى رسائله الخمس التي هي ثابتة عنه كما ذكر ذلك الحافظ اللغوي مرتضى الزبيدي.

لَيْسَ مَعَهُ غَيْرُهُ لَا مَاءٌ وَلَا هَوَاءٌ وَلَا أَرْضٌ وَلَا سَمَاءٌ وَلَا كُرْسِيٌّ وَلَا عَرْشٌ وَلَا إِنْسٌ وَلَا جِنٌّ وَلَا مَلَائِكَةٌ وَلَا زَمَانٌ وَلَا مَكَانٌ وَلَا جِهَاتٌ، فَهُوَ تَعَالَى مَوْجُودٌ قَبْلَ الْمَكَانِ بِلا مَكَانٍ، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ الْمَكَانَ فَلَيْسَ بِحَاجَةٍ إِلَيْهِ، وَهَذَا مَا يُسْتَفَادُ مِنَ الْحَدِيثِ الْمَذْكُورِ.

وَقَالَ الْبِيهَقِيُّ فِي كِتَابِهِ "الْأَسْمَاءُ وَالصِّفَاتُ": "اسْتَدَلَّ بَعْضُ أَصْحَابِنَا فِي نَفْيِ الْمَكَانِ عَنْهُ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ»، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ فَوْقَهُ شَيْءٌ وَلَا دُونَهُ شَيْءٌ لَمْ يَكُنْ فِي مَكَانٍ" اهـ.

وَهَذَا الْحَدِيثُ فِيهِ الرَّدُّ أَيْضًا عَلَى الْقَائِلِينَ بِالْجِهَةِ فِي حَقِّهِ تَعَالَى. وَقَدْ قَالَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "كَانَ اللَّهُ وَلَا مَكَانَ وَهُوَ الْآنَ عَلَى مَا عَلَيْهِ كَانَ" رَوَاهُ أَبُو مَنْصُورٍ الْبَغْدَادِيُّ.

وَلَيْسَ مَحْجُورُ الْإِعْتِقَادِ عَلَى الْوَهْمِ بَلْ عَلَى مَا يَفْتَضِيهِ الْعَقْلُ الصَّحِيحُ السَّلِيمُ الَّذِي هُوَ شَاهِدٌ لِلشَّرْعِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمَحْدُودَ مُحْتَاجٌ إِلَى مَنْ حَدَّهُ بِذَلِكَ الْحَدِّ فَلَا يَكُونُ إِلَهًا. فَكَمَا صَحَّ وَجُودُ اللَّهِ تَعَالَى بِلا مَكَانٍ وَجِهَةٍ قَبْلَ خَلْقِ الْأَمَاكِينِ وَالْجِهَاتِ فَكَذَلِكَ يَصِحُّ وَجُودُهُ بَعْدَ خَلْقِ الْأَمَاكِينِ بِلا مَكَانٍ وَجِهَةٍ، وَهَذَا لَا يَكُونُ نَفْيًا لَوْجُودِهِ تَعَالَى كَمَا زَعَمَتِ الْمَشَبَّهُةُ وَالْوَهَابِيَّةُ وَهُمْ الدُّعَاةُ إِلَى التَّجْسِيمِ فِي هَذَا الْعَصْرِ.

وَحُكْمُ مَنْ يَقُولُ: "إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فِي كُلِّ مَكَانٍ أَوْ فِي جَمِيعِ الْأَمَاكِينِ" التَّكْفِيرُ إِذَا كَانَ يَفْهَمُ مِنْ هَذِهِ الْعِبَارَةِ أَنَّ اللَّهَ بِذَاتِهِ مُنْبَتٌّ أَوْ حَالٌّ فِي الْأَمَاكِينِ، أَمَّا إِذَا كَانَ يَفْهَمُ مِنْ هَذِهِ الْعِبَارَةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُسَيِّطِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَعَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ فَلَا يَكْفُرُ، وَهَذَا قَصْدُ كَثِيرٍ مِمَّنْ يَلْهَجُ بِهَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ، وَيَجِبُ النَّهْيُ عَنْهُمَا عَلَى كُلِّ حَالٍ، لِأَنَّهُمَا لَيْسَتَا صَادِرَتَيْنِ عَنِ السَّلَفِ بَلْ عَنِ الْمُعْتَزِلَةِ ثُمَّ اسْتَعْمَلَهُمَا جَهْلَةُ الْعَوَامِّ.

وَنَرَفَعُ الْأَيْدِيَ فِي الدُّعَاءِ لِلسَّمَاءِ لِأَنَّهَا مَهْبِطُ الرَّحْمَاتِ وَالْبَرَكَاتِ وَلَيْسَ لِأَنَّ اللَّهَ مَوْجُودٌ بِذَاتِهِ فِي السَّمَاءِ، كَمَا أَنَّنَا نَسْتَقْبِلُ الْكَعْبَةَ الشَّرِيفَةَ فِي الصَّلَاةِ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَنَا بِذَلِكَ وَلَيْسَ لِأَنَّ لَهَا مِيزَةً وَخُصُوصِيَّةً بِسُكْنَى اللَّهِ فِيهَا.

ويَكْفُر من يَعْتَقِدُ التَّحْيِيزَ لله تَعَالَى، أَوْ يَعْتَقِدُ أَنَّ اللهَ شَيْءٌ كَالْهَوَاءِ أَوْ كَالنُّورِ يَمَلَأُ مَكَانًا أَوْ غُرْفَةً أَوْ مَسْجِدًا وَيُرَدُّ عَلَى الْمُعْتَقِدِينَ أَنَّ اللهَ مُتَحْيِيزٌ فِي جِهَةِ الْعُلُوِّ وَيَقُولُونَ لَذَلِكَ تُرْفَعُ الْأَيْدِي عِنْدَ الدُّعَاءِ بِمَا ثَبَتَ عَنِ الرَّسُولِ أَنَّهُ اسْتَسْقَى أَيَّ طَلَبِ الْمَطَرِ وَجَعَلَ بَطْنَ كَفِّهِ إِلَى الْأَرْضِ وَظَاهِرُهُمَا إِلَى السَّمَاءِ وَبِأَنَّهُ ﷺ نَحَى الْمُصَلِّيَّ أَنْ يَرْفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَلَوْ كَانَ اللهُ مُتَحْيِيزًا فِي جِهَةِ الْعُلُوِّ كَمَا تَظُنُّ الْمَشْبَهُةُ مَا نَهَانَا عَنْ رَفْعِ أَبْصَارِنَا فِي الصَّلَاةِ إِلَى السَّمَاءِ، وَبِأَنَّهُ ﷺ كَانَ يَرْفَعُ إصْبَعَهُ الْمُسَبَّحَةَ عِنْدَ قَوْلِ "إِلَّا اللهُ" فِي التَّحِيَّاتِ وَيَحْنِيهَا قَلِيلًا فَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُ الْمَشْبَهُةُ مَا كَانَ يَحْنِيهَا بَلْ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَكُلُّ هَذَا ثَابِتٌ حَدِيثًا عِنْدَ الْمُحَدِّثِينَ. فَمَاذَا تَفْعَلُ الْمَشْبَهُةُ وَالْوَهَابِيَّةُ؟! وَنَسَمِّي الْمَسَاجِدَ بُيُوتَ اللهِ لَا لِأَنَّ اللهَ يَسْكُنُهَا بَلْ لِأَنَّهَا أَمَاكُنُ مُعَدَّةٌ لَذِكْرِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ، وَيُقَالُ فِي الْعَرْشِ إِنَّهُ جَرْمٌ أَعَدَّهُ اللهُ لِيَطُوفَ بِهِ الْمَلَائِكَةُ كَمَا يَطُوفُ الْمُؤْمِنُونَ فِي الْأَرْضِ بِالْكَعْبَةِ.

وَكَذَلِكَ يَكْفُرُ مَنْ يَقُولُ: (اللهُ يَسْكُنُ قُلُوبَ أَوْلِيَائِهِ) إِنْ كَانَ يَفْهَمُ مِنْهُ الْحُلُولَ.

وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ بِالْمِعْرَاجِ وَصُولَ الرَّسُولِ إِلَى مَكَانٍ يَنْتَهِي وَجُودُ اللهِ تَعَالَى إِلَيْهِ وَيَكْفُرُ مَنْ اعْتَقَدَ ذَلِكَ، إِنَّمَا الْقَصْدُ مِنَ الْمِعْرَاجِ هُوَ تَشْرِيفُ الرَّسُولِ ﷺ بِإِطْلَاعِهِ عَلَى عَجَائِبِ فِي الْعَالَمِ الْعُلُويِّ، وَتَعْظِيمُ مَكَانَتِهِ وَرُؤْيَاهُ لِلذَّاتِ الْمُقَدَّسَةِ بِفُؤَادِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ الذَّاتُ فِي مَكَانٍ وَإِنَّمَا الْمَكَانُ لِلرَّسُولِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿٩﴾﴾ [سورة النجم] فَاَلْمَقْصُودُ بِهَذِهِ الْآيَةِ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَيْثُ رَآهُ الرَّسُولُ ﷺ بِمَكَّةَ بِمَكَانٍ يُقَالُ لَهُ أَجْيَادُ وَلَهُ سِتُّ مِائَةِ جَنَاحٍ سَادًّا عَظِيمٌ خَلَقَهُ مَا بَيْنَ الْأُفُقِ، كَمَا رَآهُ مَرَّةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُتَنَهَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُتَنَهَى ﴿١٤﴾﴾ [سورة النجم].

وَأَمَّا مَا فِي مُسْلِمٍ مِنْ أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَسَأَلَهُ عَنْ جَارِيَةٍ لَهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلَا أَعْتَقْتُهَا، قَالَ: ائْتَنِي بِهَا، فَأَتَاهُ بِهَا فَقَالَ لَهَا: أَيْنَ اللهُ، قَالَتْ: فِي

السَّماءِ، قال: مَنْ أنا، قالت: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، قال: أَعْتَقَهَا فَإِنَّهَا مُؤَمَّنَةٌ. فليسَ بصحيحٍ لأمرين: للاضطرابِ لأنَّه رُوِيَ بهذا اللفظ وبلفظ: مَنْ رَبُّكَ، فقالت: الله، وبلفظ: أَيْنَ اللَّهُ، فأشارت إلى السَّماءِ، وبلفظ: أَتَشْهَدِينَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قالت: نعم، قال: أَتَشْهَدِينَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، قالت: نعم.

والأمرُ الثاني: أن رواية أين الله مخالفةٌ للأصول لأنَّ من أصولِ الشريعة أن الشخصَ لا يُحكَّمُ له بقول "الله في السماء" بالإسلام لأنَّ هذا القولَ مشتركٌ بين اليهود والنصارى وغيرهم وإتِّمَّ الأصلُ المعروفُ في شريعةِ الله ما جاء في الحديثِ المتواتر: «أمرتُ أن أقاتلَ النَّاسَ حتَّى يشْهَدُوا أن لا إلهَ إلاَّ الله وأنِّي رسولُ الله». ولفظُ روايةِ مالكٍ: أَتَشْهَدِينَ، موافقٌ للأصول.

فإن قيل: كيف تكونُ روايةُ مسلم: أَيْنَ اللَّهُ، فقالت: في السماء، إلى آخره مردودةٌ مع إخراج مسلمٍ لها في كتابه وكلُّ ما رواه مسلمٌ موسومٌ بالصَّحَّةِ، فالجوابُ: أن عددًا من أحاديثِ مسلمٍ رَدَّها علماءُ الحديثِ وذكرها المحدثون في كتبهم كحديث أن الرسولَ قال لرجُلٍ: إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ، وحديثُ إنه يُعطى كل مسلم يومَ القيامةِ فداءً له من اليهود والنصارى، وكذلك حديث أنسٍ: صَلَّيْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ فَكَانُوا لَا يَذْكُرُونَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. فَأَمَّا الْأَوَّلُ فَضَعَّفَهُ الْحَافِظُ السِّيُوطِيُّ، وَالثَّانِي رَدَّهُ الْبُخَارِيُّ، وَالثَّلَاثُ ضَعَّفَهُ الشَّافِعِيُّ وَعَدَدٌ مِنَ الْحَفَازِ.

فهذا الحديثُ على ظاهره باطلٌ لمعارضتهِ الحديثَ المتواترَ المذكورَ وما خالفَ المتواترَ فهو باطلٌ إن لم يقبل التأويل. اتفقَ على ذلك المحدثون والأصوليون لكن بعض العلماءِ أوَّلوهُ على هذا الوجهِ قالوا معنى أين الله سؤال عن تعظيمِها لله وقولها في السماءِ عالي القدرِ جدًّا أما أخذه على ظاهره من أن الله ساكن السماء فهو باطلٌ مردودٌ لما تقرر فإن ظاهره ظاهرُ الفساد فإن ظاهره أنَّ الكافر إذا قالَ الله في السماءِ يُحكَّمُ له بالإيمان.

وحمل المشبهة رواية مسلم على ظاهرها فَضَلُّوا ولا يُنجيهم من الضلال قولهم إنا نحمل كلمة في السماء بمعنى إنه فوق العرش لأنهم يكونون بذلك أثبتوا له مثلاً وهو الكتاب الذي كتبه الله فيه إن رحمتي سبقت غضبي فوق العرش فيكونون أثبتوا المماثلة بين الله وبين ذلك الكتاب لأنهم جعلوا الله وذلك الكتاب مستقرين فوق العرش فيكونون كذبوا قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ١١ وهذا الحديث رواه ابن حبان بلفظ «مرفوع فوق العرش»، وأما رواية البخاري فهي «موضوع فوق العرش»، وقد حمل بعض الناس فوق بمعنى تحت وهو مردود برواية ابن حبان «مرفوع فوق العرش» فإنه لا يصح تأويل فوق فيه بتحت. ثم على اعتقادهم هذا يلزم أن يكون الله محاذياً للعرش بقدر العرش أو أوسع منه أو أصغر، وكل ما جرى عليه التقدير حادث محتاج إلى من جعله على ذلك المقدار، والعرش لا مناسبة بينه وبين الله كما أنه لا مناسبة بينه وبين شيء من خلقه، ولا يتشرف الله بشيء من خلقه ولا ينتفع بشيء من خلقه. وقول المشبهة الله قاعد على العرش شتم لله لأن القعود من صفة البشر والبهائم والجن والحشرات وكل وصف من صفات المخلوق وصف الله به شتم له، قال الحافظ الفقيه اللغوي مرتضى الزبيدي: "من جعل الله تعالى مُقَدَّرًا بِمَقْدَارِ كَفَرٍ أي لأنه جعله ذا كمية وحجم والحجم والكمية من موجبات الحدوث، وهل عرفنا أن الشمس حادثة مخلوقة من جهة العقل إلا لأن لها حجماً، ولو كان الله تعالى حجم لكان مثلاً للشمس في الحجمية ولو كان كذلك ما كان يستحق الألوهية كما أن الشمس لا تستحق الألوهية. فلو طالب هؤلاء المشبهة عابد الشمس بدليل عقلي على استحقاق الله الألوهية وعدم استحقاق الشمس الألوهية لم يكن عندهم دليل، وغاية ما يستطيعون أن يقولوا قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ١٢ [سورة الزمر]، فإن قالوا

ذلك لعابدِ الشمسِ يقولُ لهم عابدُ الشمسِ: أنا لا أؤمنُ بكتابكم أعطوني دليلاً عقلياً على أن الشمسَ لا تستحقُّ الألوهيةَ فهنا ينقطعون.

فلا يوجدُ فوقَ العرشِ شيءٌ حيٌّ يسكنه إنما يوجدُ كتابٌ فوقَ العرشِ مكتوبٌ فيه: "إنَّ رحمتي سَبَقَتْ غَضبي" أي أن مظاهر الرحمة أكثر من مظاهر الغضب، الملائكة من مظاهر الرحمة وهم أكثر عدداً من قطرات الأمطار وأوراق الأشجار، والجنة من مظاهر الرحمة وهي أكبر من جهنم بآلاف المرات.

وكونُ ذلك الكتابِ فوقَ العرشِ ثابتٌ أخرجَ حديثه البخاريُّ والنسائيُّ في السننِ الكبرى وغيرهما، ولفظ رواية ابنِ حبانَ: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ يَكْتُبُهُ عَلَى نَفْسِهِ^(١) وَهُوَ مَرْفُوعٌ فَوْقَ الْعَرْشِ إِنْ رَحِمْتِي تَغْلِبُ غَضَبِي».

فإن حاولَ محاولٌ أن يؤوِّلَ "فوق" بمعنى دون قيلَ له: تأويلُ النصوصِ لا يجوزُ إلا بدليلٍ نقليٍّ ثابتٍ أو عقليٍّ قاطعٍ وليس عندهم شيءٌ من هذين، ولا دليلٌ على لزوم التأويلِ في هذا الحديثِ، كيفَ وقد قالَ بعضُ العلماءِ إن اللوحَ المحفوظَ فوقَ العرشِ لأنه لم يرد نصٌّ صريحٌ بأنه فوقَ العرشِ ولا بأنه تحتَ العرشِ فبقي الأمرُ على الاحتمالِ أي احتمالِ أن اللوحَ المحفوظَ فوقَ العرشِ واحتمالِ أنه تحتَ العرشِ، فعلى قوله إنه فوقَ العرشِ يكونُ جعلُ اللوحِ المحفوظَ معادلاً لله أي أن يكونَ الله بمحاذاةٍ قسمٍ من العرشِ واللوحُ بمحاذاةٍ قسمٍ من العرشِ وهذا تشبيهٌ له بخلقه لأن محاذاةَ شيءٍ لشيءٍ من صفاتِ المخلوقِ.

ومما يدل على أن ذلك الكتابُ فوقَ العرشِ فوقيةٌ حقيقيةٌ لا تحتلِ التأويلِ الحديث الذي رواه النسائيُّ في السننِ الكبرى: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِأَلْفِي سَنَةٍ فَهُوَ عِنْدَهُ عَلَى الْعَرْشِ وَإِنَّهُ أَنْزَلَ مِنْ ذَلِكَ الْكِتَابِ آيَاتِينَ خَتَمَ

(١) معناه وعد.

بهما سورة البقرة»، وفي لفظ لمسلم: «فهو موضوع عنده» فهذا صريح في أن ذلك الكتاب فوق العرش فوقية حقيقية لا تحتمل التأويل.

وكلمة "عند" للتشريف ليس لإثبات تحيز الله فوق العرش لأن "عند" تستعمل لغير المكان قال الله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ۝٨٢ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ ۝٨٣﴾ [سورة هود] إنما تدل "عند" هنا أن ذلك بعلم الله وليس المعنى أن تلك الحجارة مجاورة لله تعالى في المكان. فمن يحتج بمجرد كلمة عند لإثبات المكان والتقارب بين الله وبين خلقه فهو من أجهل الجاهلين، وهل يقول عاقل إن تلك الحجارة التي أنزلها الله على أولئك الكفرة نزلت من العرش إليهم وكانت مكوّمة بمكان في جنب الله فوق العرش على زعمهم.

وقد روى البخاري أن النبي ﷺ قال: «إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ فَإِنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ فَلَا يَبْصُقَنَّ فِي قِبْلَتِهِ وَلَا عَنْ يَمِينِهِ فَإِنَّ رَبَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قِبْلَتِهِ»، وهذا الحديث أقوى إسناداً من حديث الجارية.

وأخرج البخاري أيضاً عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا، وَالَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَةٍ أَحَدِكُمْ».

فيقال للمعترض: إذا أخذت حديث الجارية على ظاهره وهذين الحديثين على ظاهرهما لبطل زعمك أن الله في السماء وإن أولت هذين الحديثين ولم تُؤوّل حديث الجارية فهذا تحكّم. أي قول بلا دليل، ويصدق عليك قول الله في اليهود ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۝٨٥﴾ [سورة البقرة]. وكذلك ماذا تقول في قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۝١١٥﴾ [سورة البقرة] فإن أولته فلم لا تُؤوّل حديث الجارية. وقد

جاء في تفسير هذه الآية عن مجاهد تلميذ ابن عباس: "قَبْلَهُ اللهُ"، فَفَسَّرَ الْوَجْهَ بِالْقَبْلَةِ،
أَيَّ لِصَلَاةِ النَّفْلِ فِي السَّفَرِ عَلَى الرَّاحِلَةِ.

وَأَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَهُوَ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا مَنْ فِي
الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمُ مَنْ فِي السَّمَاءِ»، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى «يَرْحَمُكُمُ أَهْلُ السَّمَاءِ»، فَهَذِهِ
الرِّوَايَةُ تُفَسِّرُ الرِّوَايَةَ الْأُولَى لِأَنَّ خَيْرَ مَا يُفَسَّرُ بِهِ الْحَدِيثُ الْوَارِدُ بِالْوَارِدِ كَمَا قَالَ الْحَافِظُ
الْعِرَاقِيُّ فِي أَلْفِيَّتِهِ: وَخَيْرُ مَا فَسَّرَتْهُ بِالْوَارِدِ. ثُمَّ الْمُرَادُ بِأَهْلِ السَّمَاءِ الْمَلَائِكَةُ، ذَكَرَ ذَلِكَ
الْحَافِظُ الْعِرَاقِيُّ فِي أَمَالِيهِ عَقِيبَ هَذَا الْحَدِيثِ، وَنَصَّ عِبَارَتَهُ: "وَاسْتَدَلَّ بِقَوْلِهِ: «أَهْلُ
السَّمَاءِ» عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ: ﴿أَمَّنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ﴾ ﴿١٦﴾ الْمَلَائِكَةُ" اهـ،
لأنه لا يقال لله «أَهْلُ السَّمَاءِ». و"مَنْ" تَصْلُحُ لِلْمُفْرَدِ وَلِلْجَمْعِ فَلَا حِجَّةَ لَهُمْ فِي
الْآيَةِ، وَيُقَالُ مِثْلُ ذَلِكَ فِي الْآيَةِ الَّتِي تَلِيهَا وَهِيَ: ﴿أَمْ أَمَّنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ
حَاصِبًا﴾ ﴿١٧﴾ فـ"مَنْ" فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَيْضًا أَهْلُ السَّمَاءِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَسْلُطُ عَلَى الْكُفَّارِ
الْمَلَائِكَةَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُجْلِيَ عَلَيْهِمْ عِقَابَهُ فِي الدُّنْيَا كَمَا أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْمَوْكَلُونَ
بِتَسْلِيَةِ الْعُقُوبَةِ عَلَى الْكُفَّارِ لِأَنَّهُمْ خَزَنَةُ جَهَنَّمَ وَهُمْ يَجْرُونَ عَنْقًا مِنْ جَهَنَّمَ إِلَى الْمَوْقِفِ
لِيَرْتَاعَ الْكُفَّارُ بِرُؤْيَيْهِ. وَتِلْكَ الرِّوَايَةُ الَّتِي أَوْرَدَهَا الْحَافِظُ الْعِرَاقِيُّ فِي أَمَالِيهِ هَكَذَا لَفْظُهَا:
«الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحِيمُ ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمُ أَهْلُ السَّمَاءِ».

ثُمَّ لَوْ كَانَ اللَّهُ سَاكِنَ السَّمَاءِ كَمَا يَزْعُمُ الْبَعْضُ لَكَانَ اللَّهُ يُزَاحِمُ الْمَلَائِكَةَ وَهَذَا مُحَالٌ،
فَقَدْ ثَبَتَ حَدِيثُ أَنَّهُ: «مَا فِي السَّمَوَاتِ مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ أَوْ
رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ».

وَكَذَلِكَ الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَالَ: «أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينٌ مَنْ فِي السَّمَاءِ يَأْتِينِي خَبْرٌ مَنْ فِي السَّمَاءِ صَبَاحَ مَسَاءٍ» فَلَمَقْصُودُ بِهِ الْمَلَائِكَةُ أَيْضًا، وَإِنْ أُريدَ بِهِ اللَّهُ فَمَعْنَاهُ الَّذِي هُوَ رَفِيعُ الْقَدْرِ جَدًّا.

وَأَمَّا حَدِيثُ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا كَانَتْ تَقُولُ لِنِسَاءِ الرَّسُولِ: "زَوِّجَكُنْ أَهَالِيكُنْ وَزَوِّجَنِي اللَّهُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ" فَمَعْنَاهُ أَنَّ تَزَوُّجَ النَّبِيِّ بِهَا مُسَجَّلٌ فِي اللُّوحِ الْمُحْفُوظِ وَهَذِهِ كِتَابَةٌ خَاصَّةٌ بِزَيْنَبَ لَيْسَتْ الْكِتَابَةُ الْعَامَّةُ، الْكِتَابَةُ الْعَامَّةُ لِكُلِّ شَخْصٍ فَكُلُّ زَوَاجٍ يَحْصُلُ إِلَى نَهَايَةِ الدُّنْيَا مُسَجَّلٌ، وَاللُّوحُ فَوْقَ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ.

وَأَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي فِيهِ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَتَأْتِي عَلَيْهِ إِلَّا كَانَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ سَاخِطًا عَلَيْهَا...» الْحَدِيثُ، فَيُحْمَلُ أَيْضًا عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِدَلِيلِ الرَّوَايَةِ الثَّانِيَةِ الصَّحِيحَةِ وَالَّتِي هِيَ أَشْهَرُ مِنْ هَذِهِ وَهِيَ: «لَعَنَتَهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ»، رَوَاهَا ابْنُ حَبَّانٍ وَغَيْرُهُ.

وَأَمَّا حَدِيثُ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "رَبَّنَا الَّذِي فِي السَّمَاءِ تَقَدَّسَ اسْمُكَ" فَلَمْ يَصِحَّ بَلْ هُوَ ضَعِيفٌ كَمَا حَكَّمَ عَلَيْهِ الْحَافِظُ ابْنُ الْجَوَازِيِّ، وَلَوْ صَحَّ فَأَمْرُهُ كَمَا مَرَّ فِي حَدِيثِ الْجَارِيَةِ.

وَأَمَّا حَدِيثُ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ عَلَى عَرْشِهِ فَوْقَ سَمَوَاتِهِ، وَسَمَوَاتُهُ فَوْقَ أَرْضِيهِ مِثْلَ الْقُبَّةِ" فَلَمْ يُدْخِلْهُ الْبُخَارِيُّ فِي الصَّحِيحِ فَلَا حُجَّةَ فِيهِ، وَفِي إِسْنَادِهِ مَنْ هُوَ ضَعِيفٌ لَا يُحْتَجُّ بِهِ، ذَكَرَهُ ابْنُ الْجَوَازِيِّ وَغَيْرُهُ.

وَكَذَلِكَ مَا رَوَاهُ فِي كِتَابِهِ "خَلْقُ أَفْعَالِ الْعِبَادِ" عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: "لَمَّا كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى كَانَ نِدَاؤُهُ فِي السَّمَاءِ وَكَانَ اللَّهُ فِي السَّمَاءِ"، فَهُوَ غَيْرُ ثَابِتٍ فَلَا يُحْتَجُّ بِهِ^(١).

(١) البخاري لم يلتزم أن لا يذكر إلا الصحيح في هذا الكتاب، لذلك لا يُكتفى لتصحيح الحديث بمجرد ذكره فيه.

وَأَمَّا الْقَوْلُ الْمَنْسُوبُ لِمَالِكٍ وَهُوَ قَوْلُ: "اللَّهُ فِي السَّمَاءِ وَعِلْمُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ لَا يَخْلُو مِنْهُ شَيْءٌ" فَهُوَ غَيْرُ ثَابِتٍ أَيْضًا عَنْ مَالِكٍ وَأَبُو دَاوُدَ لَمْ يُسْنِدْهُ إِلَيْهِ بِالْإِسْنَادِ الصَّحِيحِ بَلْ ذَكَرَهُ فِي كِتَابِهِ الْمَراسِيلِ، وَمُجَرَّدُ الرَّوَايَةِ لَا يَكُونُ إِثْبَاتًا.

صِفَاتُ اللَّهِ الثَّلَاثَ عَشْرَةَ

جَرَتْ عَادَةُ الْعُلَمَاءِ الْمُؤَلِّفِينَ فِي الْعَقِيدَةِ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ عَلَى قَوْلِهِمْ: إِنَّ الْوَاجِبَ الْعَيْنِيَّ الْمَفْرُوضَ عَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ "أَيُّ الْبَالِغِ الْعَاقِلِ" أَنْ يَعْرِفَ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ ثَلَاثَ عَشْرَةَ صِفَةً:

الْوُجُودَ، وَالْقَدَمَ، وَالْمُخَالَفَةَ لِلْحَوَادِثِ، وَالْوَحْدَانِيَّةَ، وَالْقِيَامَ بِنَفْسِهِ، وَالْبَقَاءَ، وَالْقُدْرَةَ، وَالْإِرَادَةَ، وَالْحَيَاةَ، وَالْعِلْمَ، وَالْكَلَامَ، وَالسَّمْعَ، وَالْبَصَرَ، وَأَنَّهُ يَسْتَحِيلُ عَلَى اللَّهِ مَا يَنَافِي هَذِهِ الصِّفَاتِ.

وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الصِّفَاتُ ذُكِرَتْ كَثِيرًا فِي النُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ قَالَ الْعُلَمَاءُ: يَجِبُ مَعْرِفَتُهَا وَجُوبًا عَيْنِيًّا - أَيُّ عَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ بَعَيْنِهِ -، وَقَالَ بَعْضُهُمْ بِوُجُوبِ مَعْرِفَةِ عِشْرِينَ صِفَةً، فَزَادُوا سَبْعَ صِفَاتٍ مَعْنَوِيَّةٍ، قَالُوا: وَكَوْنُهُ تَعَالَى قَادِرًا وَمُرِيدًا وَحَيًّا وَعَالِمًا وَمُتَكَلِّمًا وَسَمِيعًا وَبَصِيرًا، وَالطَّرِيقَةُ الْأُولَى هِيَ الرَّاجِحَةُ لِأَنَّهُ يُعْلَمُ مِنْ ثُبُوتِ الْقُدْرَةِ لَهُ كَوْنُهُ قَادِرًا وَهَكَذَا الْبَقِيَّةُ.

الْوُجُودُ

اعْلَمْ رَحِمَكَ اللَّهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَوْجُودٌ أَزَلًا وَأَبَدًا فَلَيْسَ وَجُودُهُ تَعَالَى بِإِيجَادٍ مُوجِدٍ.

وَقَدْ اسْتَنَكَرَ بَعْضُ النَّاسِ قَوْلَ: "اللَّهُ مَوْجُودٌ" لِكَوْنِهِ عَلَى وَزْنِ مَفْعُولٍ وَالْجَوَابُ أَنَّ مَفْعُولًا قَدْ يُطْلَقُ عَلَى مَنْ لَمْ يَقَعْ عَلَيْهِ فِعْلُ الْغَيْرِ كَمَا نَقُولُ: اللَّهُ مَعْبُودٌ وَهَؤُلَاءِ ظَنُّوا بِأَنْفُسِهِمْ أَنَّ لَهُمْ نَصِيبًا فِي عِلْمِ اللُّغَةِ وَلَيْسُوا كَمَا ظَنُّوا.

قَالَ اللُّغَوِيُّ الْكَبِيرُ شَارِحُ الْقَامُوسِ الزَّيْدِيُّ فِي شَرْحِ الْإِحْيَاءِ مَا نَصَّهُ: "وَالْبَارِئُ تَعَالَى مَوْجُودٌ فَصَحَّ أَنْ يُرَى".

وَقَالَ الْقِيُومِيُّ اللُّغَوِيُّ صَاحِبُ الْمِصْبَاحِ: الْمَوْجُودُ خِلَافُ الْمَعْدُومِ.

الْقَدَمُ

يجب لله القدم بمعنى الأزلية لا بمعنى تقادم العهد والزمن، لأن لفظ القديم والأزلي إذا أطلقا على الله كان المعنى أنه لا بداية لوجوده، فيقال الله أزلي، الله قديم، وإذا أطلقا على المخلوق كانا بمعنى تقادم العهد والزمن، قال تعالى في القمر: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [سورة يس]، وقال صاحب القاموس (الفيروزآبادي): "الهرمان بناءان أزليان بمصر."

وَأَمَّا بُرْهَانُ قِدَمِهِ تَعَالَى فَهُوَ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُن قَدِيمًا لَلَزِمَ حُدُوثُهُ فَيَفْتَقِرُ إِلَى مُحَدِّثٍ فَيَلْزِمُ الدَّوْرُ أَوْ التَّسْلِسُ كُلُّ مَنْهُمَا مُحَالٌ، فَثَبَتَ أَنَّ حُدُوثَهُ تَعَالَى مُحَالٌ وَقِدَمُهُ ثَابِتٌ. وَأَمَّا بُرْهَانُ قِدَمِهِ تَعَالَى فَهُوَ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُن قَدِيمًا لَلَزِمَ حُدُوثُهُ فَيَفْتَقِرُ إِلَى مُحَدِّثٍ فَيَلْزِمُ الدَّوْرُ أَوْ التَّسْلِسُ كُلُّ مَنْهُمَا مُحَالٌ، فَثَبَتَ أَنَّ حُدُوثَهُ تَعَالَى مُحَالٌ وَقِدَمُهُ ثَابِتٌ.

الْبَقَاءُ

يَجِبُ الْبَقَاءُ لِلَّهِ تَعَالَى بِمَعْنَى أَنَّهُ لَا يَلْحَقُهُ فَنَاءٌ، لِأَنَّهُ لَمَّا ثَبَتَ وَجُوبُ قِدَمِهِ تَعَالَى عَقْلًا وَجِبَ لَهُ الْبَقَاءُ، لِأَنَّهُ لَوْ أَمْكَنَ أَنْ يَلْحَقَهُ الْعَدَمُ لَانْتَفَى عَنْهُ الْقَدَمُ، فَهُوَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى

الباقى لذاته لا باقى لذاته غيره، وأما الجنة والنار فبقاؤهما ليس بالذات بل لأن الله شاء لهما البقاء، فالجنة باعتبار ذاتها يجوز عليها الفناء وكذلك النار باعتبار ذاتها يجوز عليها الفناء.

السَّمْع

وهو صفة أزلية ثابتة لذات الله.

فهو يسمع الأصوات بسمع أزلي أبدي لا كسمعنا، ليس بأذن وصماخ، فهو تعالى لا يعزب أي لا يغيب عن سمعه مسموع وإن خفي - أي علينا - وبعد - أي عنا - ، كما يعلم بغير قلب.

ودليل وجوب السمع له عقلا أنه لو لم يكن متصفاً بالسمع لكان متصفاً بالصمم وهو نقص على الله، والنقص عليه محال، فمن قال إنه يسمع بأذن فقد ألد وكفر.

البَصَر

يجب لله تعالى عقلا البصر أي الرؤية.

فهو يرى برؤية أزلية أبدية المراتب جميعها ويرى ذاته بغير حدة وجارحة، لأن الحواس من صفات المخلوقين.

والدليل على ثبوت البصر له عقلا أنه لو لم يكن بصيراً رايًا لكان أعمى، والعمى أي عدم الرؤية نقص على الله، والنقص عليه مستحيل.

ودليل السمع والبصر السمعى الآيات والأحاديث، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى]، وقوله ﷺ في تعداد أسماء الله الحسنى: «السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» وهو في حديث أخرجه الترمذي وحسنه.

الكلام

الكلام هو صفة أزليّة أبدية هو متكلم بها ءامر، ناه، واعد، متوعد، ليس كلام غيره، بل أزليّ بأزليّة الذات لا يشبهه كلام الخلق وليس بصوت يحدث من انسلال الهواء أو اصطكاك الأجرام، ولا بحرف ينقطع بإطباق شفة أو تحريك لسان.

ونعتقد أنّ موسى سَمِعَ كلام الله الأزليّ بغير حرفٍ ولا صوتٍ كما يرى المؤمنون ذات الله في الآخرة من غير أن يكون جوهراً ولا عرضاً لأنّ العقل لا يُحِيلُ سماعَ ما ليس بحرفٍ ولا صوتٍ.

وكلامه تعالى الذاتيّ ليس حُرُوفًا مُتَعاقِبَةً ككلامنا، وإذا قرأ القارئ مِنّا كلامَ الله فقراءته حرفٌ وصوتٌ ليستْ أزليّةً.

والقرءانُ لَهُ إطلاقان:

يُطلقُ على اللفظِ المُنزَّلِ على محمدٍ وعلى الكلامِ الذاتيّ الأزلي الذي ليس هو بحرفٍ ولا صوتٍ ولا لغةٍ عربيّةٍ ولا غيرها. فإن قُصِدَ به الكلامُ الذاتيّ فهو أزليّ ليس بحرفٍ ولا صوتٍ، وإن قُصِدَ به وبسائر الكتبِ السماوية اللفظُ المُنزَّلُ فمنه ما هو باللغة العبرية ومنه ما هو باللغة السريانية وهذه اللغاتُ وغيرها من اللغاتِ لم تكن موجودةً فخلقها الله تعالى فصارت موجودةً والله تعالى كان قبل كلّ شيءٍ، وكان متكلمًا قبلها ولم يزل متكلمًا وكلامه الذي هو صفته أزليّ أبديّ وهو كلام واحد وهذه الكتبُ المنزلة كُلُّها عباراتٌ عن ذلك الكلامِ الذاتيّ الأزلي الأبدي، ولا يلزم من كونِ العبارة حادثةً كونَ المعبر عنه حادثاً ألا ترى أننا إذا كُتِبنا على لوحٍ أو جدارٍ "الله" فقليلَ هذا الله فهل معنى هذا أن أشكالَ الحروفِ المرسومة هي ذات الله لا يتوهم هذا عاقلٌ إنّما يفهم من ذلك أن هذه الحروف عبارة عن الإله الذي هو موجودٌ معبودٌ خالقٌ لكلّ شيءٍ ومع هذا لا

يقالُ القراءُ مخلوقٌ لكن يُبيّن في مقامِ التّعليم أن اللفظَ المنزّل ليس قائماً بذاتِ الله بل هو مخلوقٌ لله لأنّه حروفٌ يسبقُ بعضها بعضاً وما كان كذلك حادثٌ مخلوقٌ قطعاً. لكنّه ليس من تصنيفِ ملكٍ ولا بشرٍ فهو عبارةٌ عن الكلامِ الدّاتيّ الذي لا يُوصفُ بأنّه عربيٌّ، ولا بأنّه عبرانيٌّ، ولا بأنّه سُريانيٌّ، وكلُّ يُطلقُ عليه كلامُ الله، أي أنّ صِفَةَ الكلامِ القائِمة بذاتِ الله يُقالُ لها كلامُ الله، واللفظُ المنزّل الذي هو عبارةٌ عنه يُقالُ له كلامُ الله.

وقد نُقلَ هذا التفصيلُ عن أبي حنيفة رضي الله عنه وهو من السلفِ أدركَ شيئاً من المائةِ الأولى ثم توفّي سنة مائةٍ وخمسينَ هجرية قال: "والله يتكلّم لا بآلةٍ وحرفٍ ونحن نتكلّم بآلةٍ وحرفٍ" فليُفهم ذلك، وليس الأمرُ كما تقولُ المشبهةُ بأن السلفَ ما كانوا يقولون بأن الله متكلّم بكلامٍ ليس بحرفٍ وإنما هذا بدعةُ الأشاعرة، وهذا الكلامُ من أبي حنيفة ثابتٌ ذكره في إحدى رسائله الخمس.

والإطلاقان من بابِ الحقيقةِ لأنَّ الحقيقةَ إمّا لُغويّةٌ وإمّا شرعيّةٌ وإمّا عُرفيّةٌ. وإطلاق القراءان على اللفظ المنزل حقيقة شرعية فليعلم ذلك.

وتقريبُ ذلك كما تقدم أنّ لفظَ الجلالةِ "الله" عبارةٌ عن ذاتِ أزليٍّ أبديٍّ، فإذا قلنا نعبُدُ الله فذلك الدّاتُ هو المَقْصُودُ، وإذا كُتِبَ هذا اللفظُ فقليلٌ: ما هذا؟ يُقال: الله، بمعنى أنّ هذه الحروفَ تدلُّ على ذلك الدّاتِ الأزليّ الأبديّ لا بمعنى أنّ هذه الحروفَ هي الدّاتُ الذي نعبُدُه.

الإرادة

اعلم أنّ الإرادةَ وهي المشيئةُ واجبةٌ لله تعالى، وهي صِفَةُ أزليّةٌ أبديّةٌ يُخصّصُ الله بها الجائزَ العقليّ بالوجودِ بدلَ العدمِ، وبصفةٍ دُونَ أُخرى وبوقتٍ دُونَ أُخرى. وبُرهانُ

وَجُوبُ الْإِرَادَةِ لِلَّهِ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ مُرِيدًا لَمْ يُوجَدْ شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ، لِأَنَّ الْعَالَمَ مُمَكِّنُ الْوُجُودِ فَوُجُودُهُ لَيْسَ وَاجِبًا لِذَاتِهِ عَقْلًا وَالْعَالَمُ مَوْجُودٌ فَعَلِمْنَا أَنَّهُ مَا وَجِدَ إِلَّا بِتَخْصِيصِ مُخْصَصٍ لَوُجُودِهِ وَتَرْجِيحِهِ لَهُ عَلَى عَدَمِهِ، فَثَبَتَ أَنَّ اللَّهَ مُرِيدٌ شَاءَ.

ثُمَّ الْإِرَادَةُ بِمَعْنَى الْمَشِيئَةِ عِنْدَ أَهْلِ الْحَقِّ شَامِلَةٌ لِأَعْمَالِ الْعِبَادِ جَمِيعِهَا الْخَيْرِ مِنْهَا وَالشَّرِّ، فَكُلُّ مَا دَخَلَ فِي الْوُجُودِ مِنْ أَعْمَالِ الشَّرِّ وَالْخَيْرِ وَمِنْ كُفْرٍ أَوْ مَعَاصٍ أَوْ طَاعَةٍ فَبِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَقَعَ وَحَصَلَ، وَهَذَا كَمَالٌ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى، لِأَنَّ شُمُولَ الْقُدْرَةِ وَالْمَشِيئَةِ لَائِقٌ بِجَلَالِ اللَّهِ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ يَقَعُ فِي مَلِكِهِ مَا لَا يَشَاءُ لَكَانَ ذَلِكَ دَلِيلَ الْعَجْزِ وَالْعَجْزُ مُسْتَحِيلٌ عَلَى اللَّهِ.

وَالْمَشِيئَةُ تَابِعَةٌ لِلْعِلْمِ أَيُّ أَنَّهُ مَا عَلِمَ خُذُوتهُ فَقَدْ شَاءَ خُذُوتهُ وَمَا عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ لَمْ يَشَأْ أَنْ يَكُونَ.

وَلَيْسَتْ الْمَشِيئَةُ تَابِعَةً لِلْأَمْرِ بِدَلِيلِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ إِبْرَاهِيمَ بِذَبْحِ وَلَدِهِ إِسْمَاعِيلَ وَلَمْ يَشَأْ لَهُ ذَلِكَ.

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يَأْمُرُ بِمَا لَمْ يَشَأْ وَقُوعُهُ؟ فَالْجَوَابُ: أَنَّهُ قَدْ يَأْمُرُ بِمَا لَمْ يَشَأْ، كَمَا أَنَّهُ عَلِمَ بِوُقُوعِ شَيْءٍ مِنَ الْعَبْدِ وَنَهَاهُ عَنْ فِعْلِهِ.

الْقُدْرَةُ

يَجِبُ لِلَّهِ تَعَالَى الْقُدْرَةُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَالْمُرَادُ بِالشَّيْءِ هُنَا الْجَائِزُ الْعَقْلِيُّ فَخَرَجَ بِذَلِكَ الْمُسْتَحِيلُ الْعَقْلِيُّ لِأَنَّهُ غَيْرُ قَابِلٍ لِلْوُجُودِ فَلَمْ يَصْلُحْ أَنْ يَكُونَ مُحَلًّا لِتَعَلُّقِ الْقُدْرَةِ. وَخَالَفَ فِي ذَلِكَ ابْنُ حَزْمٍ فَقَالَ: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَادِرٌ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا، إِذْ لَوْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ لَكَانَ عَاجِزًا"، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ غَيْرُ لَازِمٍ لِأَنَّ اتِّخَاذَ الْوَلَدِ مُحَالٌ عَلَى اللَّهِ وَالْمُحَالُ الْعَقْلِيُّ لَا يَدْخُلُ تَحْتَ الْقُدْرَةِ، وَعَدَمُ تَعَلُّقِ الْقُدْرَةِ بِالشَّيْءِ تَارَةٌ يَكُونُ لِقُصُورِهَا عَنْهُ

وَذَلِكَ فِي الْمَخْلُوقِ، وَتَارَةً يَكُونُ لِعَدَمِ قَبُولِ ذَلِكَ الشَّيْءِ الدَّخُولَ فِي الْوُجُودِ أَيْ حَدُوثِ الْوُجُودِ لِكَوْنِهِ مُسْتَحِيلًا عَقْلِيًّا وَتَارَةً يَكُونُ لِعَدَمِ قَبُولِ ذَلِكَ الشَّيْءِ الْعَدَمَ لِكَوْنِهِ وَاجِبًا عَقْلِيًّا. وَالْعَجْزُ هُوَ الْأَوَّلُ الْمَنْفِيُّ عَنِ قُدْرَتِهِ تَعَالَى لَا الثَّانِي، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ وَلَا عَاجِزٌ. قَالَ بَعْضُهُمْ: كَمَا لَا يُقَالُ عَنِ الْحَجَرِ عَالِمٌ وَلَا جَاهِلٌ، وَكَذَلِكَ يُجَابُ عَلَى قَوْلِ بَعْضِ الْمُلْحِدِينَ: "هَلِ اللَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُ" وَهَذَا فِيهِ تَجْوِيزُ الْمُحَالِ الْعَقْلِيِّ، وَبَيَانُ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ أَزَلِيٌّ وَلَوْ كَانَ لَهُ مِثْلٌ لَكَانَ أَزَلِيًّا، وَالْأَزَلِيُّ لَا يُخْلَقُ لِأَنَّهُ مَوْجُودٌ فَكَيْفَ يُخْلَقُ الْمَوْجُودُ. أَمَّا الْمُسْتَحِيلُ الْعَقْلِيُّ فَعَدَمُ قَبُولِهِ الدَّخُولَ فِي الْوُجُودِ ظَاهِرٌ وَأَمَّا الْوَاجِبُ الْعَقْلِيُّ فَلَا يَقْبَلُ حَدُوثَ الْوُجُودِ لِأَنَّ وجودَهُ أَزَلِيٌّ، فَرَقٌّ بَيْنَ الْوُجُودِ وَبَيْنَ الدَّخُولِ فِي الْوُجُودِ، فَالْوُجُودُ يَشْمَلُ الْوُجُودَ الْأَزَلِيَّ وَالْوُجُودَ الْحَادِثَ وَكُلُّهُمَا يُسَمَّى وَجُودًا. أَمَّا الدَّخُولُ فِي الْوُجُودِ فَهُوَ الْوُجُودُ الْحَادِثُ. فَالوَاجِبُ الْعَقْلِيُّ اللَّهُ وَصِفَاتُهُ، فَاللَّهُ وَاجِبٌ عَقْلِيٌّ وَجُودُهُ أَزَلِيٌّ وَصِفَاتُهُ أَزَلِيَّةٌ وَلَا يُقَالُ لِلَّهِ وَلَا لَصِفَاتِهِ دَاخِلٌ فِي الْوُجُودِ لِأَنَّ وجودَهُمَا أَزَلِيٌّ، فَقَوْلُنَا إِنَّ الْوَاجِبَ الْعَقْلِيَّ لَا يَقْبَلُ الدَّخُولَ فِي الْوُجُودِ صَحِيحٌ لَكِنْ يَقْصُرُ عَنْهُ أَفْهَامُ الْمُبْتَدِئِينَ فِي الْعَقِيدَةِ، أَمَّا عِنْدَ مَنْ مَارَسَ فَهِيَ وَاضِحَةٌ الْمُرَادُ.

وَالْعَجْزُ هُوَ الْأَوَّلُ الْمَنْفِيُّ عَنِ قُدْرَتِهِ تَعَالَى لَا الثَّانِي، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ وَلَا عَاجِزٌ. قَالَ بَعْضُهُمْ: كَمَا لَا يُقَالُ عَنِ الْحَجَرِ عَالِمٌ وَلَا جَاهِلٌ، وَكَذَلِكَ يُجَابُ عَلَى قَوْلِ بَعْضِ الْمُلْحِدِينَ: "هَلِ اللَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُ" وَهَذَا فِيهِ تَجْوِيزُ الْمُحَالِ الْعَقْلِيِّ، وَبَيَانُ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ أَزَلِيٌّ وَلَوْ كَانَ لَهُ مِثْلٌ لَكَانَ أَزَلِيًّا، وَالْأَزَلِيُّ لَا يَخْلُقُ لِأَنَّهُ مَوْجُودٌ فَكَيْفَ يُخْلَقُ الْمَوْجُودُ.

العلم

اعلم أنَّ عِلْمَ الله قَدِيمٌ أَزَلِيٌّ كَمَا أَنَّ ذَاتَهُ أَزَلِيٌّ، فَلَمْ يَزَلْ عَالِمًا بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَمَا يُحْدِثُهُ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، فَلَا يَتَّصِفُ بِعِلْمِ حَدَثٍ لِأَنَّهُ لَوْ جَازَ اتِّصَافُهُ بِالْحَوَادِثِ لَانْتَفَى عَنْهُ الْقَدَمُ لِأَنَّ مَا كَانَ مُحَلًّا لِلْحَوَادِثِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ حَدِثًا.

وَمَا أَوْهَمَ تَجَدُّدَ الْعِلْمِ لِلَّهِ تَعَالَى مِنَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَكُنْ خَفَّافًا عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ [سورة الأنفال] فَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ ذَلِكَ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَعَلِمَ﴾ [٦٦] لَيْسَ رَاجِعًا لِقَوْلِهِ: ﴿أَكُنْ﴾ [٦٦] بَلِ الْمَعْنَى أَنَّهُ تَعَالَى خَفَّفَ عَنْكُمْ الْآنَ لِأَنَّهُ عِلْمٌ بِعِلْمِهِ السَّابِقِ فِي الْأَزَلِ أَنَّهُ يَكُونُ فِيكُمْ ضَعْفٌ.

وكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ﴾ [سورة محمد] مَعْنَاهُ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نُمَيِّزَ أَيْ نُظْهِرَ لِلخَلْقِ مَنْ يُجَاهِدُ وَيَصْبِرُ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَكَانَ اللهُ عَالِمًا قَبْلَ كَمَا نَقَلَ الْبُخَارِيُّ ذَلِكَ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ مَعْمَرِ بْنِ الْمُثَنَّى، وَهَذَا شَبِيهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [سورة الأنفال].

الحياة

يَجِبُ لِلَّهِ تَعَالَى الْحَيَاةُ، فَهُوَ حَيٌّ لَا كَالْأَحْيَاءِ، إِذْ حَيَاتُهُ أَزَلِيَّةٌ أَبَدِيَّةٌ لَيْسَتْ بِرُوحٍ وَدَمٍ. وَالِدَّلِيلُ عَلَى وُجُوبِ حَيَاتِهِ وَجُودُ هَذَا الْعَالَمِ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ حَيًّا لَمْ يُوجَدْ شَيْءٌ مِنَ الْعَالَمِ، لَكِنَّ وُجُودَ الْعَالَمِ ثَابِتٌ بِالْحِسِّ وَالضَّرُورَةِ بِلا شَكٍّ.

الوَحْدَانِيَّةُ

مَعْنَى الْوَحْدَانِيَّةِ أَنَّهُ لَيْسَ ذَاتًا مُؤَلَّفًا مِنْ أَجْزَاءٍ، فَلَا يُوجَدُ ذَاتٌ مِثْلُ ذَاتِهِ وَلَيْسَ لغيرِهِ صِفَةٌ كَصِفَتِهِ أَوْ فَعْلٌ كَفَعْلِهِ وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِوَحْدَانِيَّتِهِ وَحْدَانِيَّةَ الْعَدَدِ إِذِ الْوَاحِدُ فِي الْعَدَدِ لَهُ نِصْفٌ وَأَجْزَاءٌ أَيْضًا، بَلِ الْمُرَادُ أَنَّهُ لَا شَبِيهَ لَهُ.

وَبُرْهَانُ وَحْدَانِيَّتِهِ هُوَ أَنَّهُ لَا بُدَّ لِلصَّانِعِ مِنْ أَنْ يَكُونَ حَيًّا قَادِرًا عَالِمًا مُرِيدًا مُخْتَارًا، فَإِذَا ثَبَتَ وَصْفُ الصَّانِعِ بِمَا ذَكَرْنَاهُ قُلْنَا لَوْ كَانَ لِلْعَالَمِ صَانِعَانِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَيًّا قَادِرًا عَالِمًا مُرِيدًا مُخْتَارًا وَالْمُخْتَارَانِ يَجُوزُ اخْتِلَافُهُمَا فِي الْاِخْتِيَارِ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا غَيْرُ مُجَبَّرٍ عَلَى مُوَافَقَةِ الْآخَرِ فِي اخْتِيَارِهِ، وَإِلَّا لَكُنَا بِمَجْبُورَيْنِ وَاجْبُورٍ لَا يَكُونُ إِلَهًا، فَإِذَا صَحَّ هَذَا فَلَوْ أَرَادَ أَحَدُهُمَا خِلَافَ مُرَادِ الْآخَرِ فِي شَيْءٍ كَأَنْ أَرَادَ أَحَدُهُمَا حَيَاةَ شَخْصٍ وَأَرَادَ الْآخَرُ مَوْتَهُ لَمْ يَخْلُ مِنْ أَنْ يَتِمَّ مُرَادُهُمَا أَوْ لَا يَتِمَّ مُرَادُهُمَا أَوْ يَتِمَّ مُرَادُ أَحَدِهِمَا وَلَا يَتِمَّ مُرَادُ الْآخَرِ، وَمُحَالٌ تَمَامُ مُرَادَيْهِمَا لِتَضَادِّهِمَا أَيُّ إِنْ أَرَادَ أَحَدُهُمَا حَيَاةَ شَخْصٍ وَأَرَادَ الْآخَرُ مَوْتَهُ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الشَّخْصُ حَيًّا وَمَيِّتًا فِي عَيْنِ وَاحِدٍ، وَإِنْ لَمْ يَتِمَّ مُرَادُهُمَا فَهُمَا عَاجِزَانِ وَالْعَاجِزُ لَا يَكُونُ إِلَهًا، وَإِنْ تَمَّ مُرَادُ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يَتِمَّ مُرَادُ الْآخَرِ فَإِنَّ الَّذِي لَمْ يَتِمَّ مُرَادُهُ عَاجِزٌ وَلَا يَكُونُ الْعَاجِزُ إِلَهًا وَلَا قَدِيمًا، وَهَذِهِ الدَّلَالَةُ مَعْرُوفَةٌ عِنْدَ الْمُوَحِّدِينَ تُسَمَّى بِدَلَالَةِ التَّمَانُعِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا

اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (سورة الأنبياء).

الْقِيَامُ بِالنَّفْسِ

اعْلَمْ أَنَّ مَعْنَى قِيَامِهِ بِنَفْسِهِ هُوَ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى مُخَصَّصٍ لَهُ بِالْوُجُودِ لِأَنَّ الْاِخْتِيَاغَ إِلَى الْغَيْرِ يُنَاقِزُ قِدَمَهُ وَقَدْ ثَبَتَ وَجُوبُ قِدَمِهِ وَبَقَائِهِ.

المخالفة للحوادث

يَجِبُ لِلَّهِ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ مُخَالَفًا لِلْحَوَادِثِ بِمَعْنَى أَنَّهُ لَا يُشَبِّهُ شَيْئًا مِنْ خَلْقِهِ فَلَيْسَ هُوَ بِجَوْهَرٍ يَشْغُلُ حَيْزًا وَلَا عَرَضٍ، وَالْجَوْهَرُ مَا لَهُ تَحْيُزٌ وَقِيَامٌ بِذَاتِهِ كَالْأَجْسَامِ، وَالْعَرَضُ مَا لَا يَقُومُ بِنَفْسِهِ وَإِنَّمَا يَقُومُ بِغَيْرِهِ كَالْحَرَكَةِ وَالشُّكُونِ وَالاجْتِمَاعِ وَالْإِفْتِرَاقِ وَالْأَلْوَانِ وَالطُّعُومِ وَالرَّوَائِحِ، وَلِذَلِكَ قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ فِي بَعْضِ رِسَائِلِهِ فِي عِلْمِ الْكَلَامِ: "أَنِّي يُشَبِّهُ الْخَالِقُ مَخْلُوقَهُ" مَعْنَاهُ لَا يَصِحُّ عَقْلًا وَلَا نَقْلًا أَنْ يُشَبَّهَ الْخَالِقُ مَخْلُوقَهُ، وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الْخَطَّابِيُّ: "إِنَّ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْنَا وَعَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَعْلَمَهُ أَنَّ رَبَّنَا لَيْسَ بِذِي صُورَةٍ وَلَا هَيْئَةٍ فَإِنَّ الصُّورَةَ تَقْتَضِي الْكَيْفِيَّةَ وَهِيَ عَنِ اللَّهِ وَعَنْ صِفَاتِهِ مَنْفِيَّةٌ" رَوَاهُ عَنْهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

وَقَدْ تُطْلَقُ الْكَيْفِيَّةُ بِمَعْنَى الْحَقِيقَةِ كَمَا فِي قَوْلِ بَعْضِهِمْ:

كَيْفِيَّةُ الْمَرْءِ لَيْسَ الْمَرْءُ يُدْرِكُهَا فَكَيْفَ كَيْفِيَّةِ الْجَبَّارِ فِي الْقَدَمِ

وَمُرَادُ هَذَا الْقَائِلِ الْحَقِيقَةُ. وَهَذَا الْبَيْتُ ذَكَرَهُ الزَّرْكَشِيُّ وَابْنُ الْجَوْزِيِّ وَغَيْرُهُمَا.

وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّحَاوِيُّ: "وَمَنْ وَصَفَ اللَّهَ بِمَعْنَى مِنْ مَعَانِي الْبَشَرِ فَقَدْ كَفَرَ". وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْقَرْنِ الثَّالِثِ، فَهُوَ دَاخِلٌ فِي حَدِيثِ: «خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَالْقُرْنُ الْمُرَادُ بِهِ مِائَةُ سَنَةٍ كَمَا قَالَ ذَلِكَ الْحَافِظُ أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ عَسَاكِرَ فِي كِتَابِهِ تَبْيِينَ كَذِبِ الْمُفْتَرِي الَّذِي أَلْفَهُ فِي التَّنْوِيهِ بِأَبِي الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

صِفَاتُ اللَّهِ كُلُّهَا كَامِلَةٌ

صِفَاتُ اللَّهِ أَزَلِيَّةٌ أَبَدِيَّةٌ، لِأَنَّ الدَّاتَ أَزَلِيٌّ فَلَا تَحْصُلُ لَهُ صِفَةٌ لَمْ تَكُنْ فِي الْأَزَلِ، أَمَّا صِفَاتُ الْخَلْقِ فَهِيَ حَادِثَةٌ تَقْبَلُ التَّطَوُّرَ مِنْ كَمَالٍ إِلَى أَكْمَلٍ فَلَا يَتَجَدَّدُ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى شَيْءٌ. وَاللَّهُ تَعَالَى خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ بِعِلْمِهِ الْأَزَلِيِّ وَقُدْرَتِهِ الْأَزَلِيَّةِ وَمَشِئَتِهِ الْأَزَلِيَّةِ، فَالْمَاضِي وَالْحَاضِرُ وَالْمُسْتَقْبَلُ بِالنِّسْبَةِ لِلَّهِ أَحَاطَ بِهِ بِعِلْمِهِ الْأَزَلِيِّ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ (سورة محمد).

فَلَيْسَ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ سَوْفَ يَعْلَمُ الْمُجَاهِدِينَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ عَالِمًا بِهِمْ بِالِامْتِحَانِ وَالِاخْتِبَارِ، وَهَذَا يَسْتَحِيلُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، بَلْ مَعْنَى الْآيَةِ حَتَّى نُمَيِّزَ أَيَّ حَتَّى نُظْهِرَ لِعِبَادِ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ مِنْ غَيْرِهِمْ.

وَيَكْفُرُ مَنْ يَقُولُ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَكْتَسِبُ عِلْمًا جَدِيدًا.

وَصِفَاتُ اللَّهِ تَعَالَى كُلُّهَا كَامِلَةٌ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (سورة الأعراف).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ (سورة النحل) فَيَسْتَحِيلُ فِي حَقِّهِ تَعَالَى أَيُّ نَقْصٍ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَكْرُؤًا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ (سورة آل عمران) فَالْمَكْرُؤُ مِنَ الْخَلْقِ خُبْتُ وَخِدَاعٌ لِإِصْصَالِ الضَّرَرِ إِلَى الْغَيْرِ بِاسْتِعْمَالِ حِيلَةٍ، وَأَمَّا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ مُجَازَاةُ الْمَاكِرِينَ بِالْعُقُوبَةِ مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرُونَ. وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى إِنَّ اللَّهَ أَقْوَى فِي إِصْصَالِ الضَّرَرِ إِلَى الْمَاكِرِينَ مِنْ كُلِّ مَاكِرٍ جَزَاءً لَهُمْ عَلَى مَكْرِهِمْ، فَالْمَكْرُؤُ بِمَعْنَى الْاِخْتِيَالِ مُسْتَحِيلٌ عَلَى اللَّهِ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ (سورة البقرة) أَيُّ يُجَازِيهِمْ عَلَى اسْتِهْزَائِهِمْ.

واعلم أنَّ العلماء يقولون: نؤمنُ بإثباتِ ما وردَ في القرآنِ والحديثِ الصحيحِ كالوجهِ واليدِ والعَيْنِ والرِّضَا والغَضَبِ وغيرِهِ على أنَّها صِفَاتٌ يَعْلَمُهَا اللهُ لا على أنَّها جَوَارِحُ وأنفِعالاتٌ كأَيدينا ووُجُوهُنا وعُيُوننا وغَضَبنا.

فإنَّ الجَوَارِحَ مُسْتَحِيلَةٌ على الله لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى]، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص].

قَالُوا لَوْ كَانَ اللهُ عَيْنٌ بِمَعْنَى الجَارِحَةِ والجِسْمِ لَكَانَ لَهُ أَمْثَالٌ فَضْلاً عَنْ مِثْلِ وَاحِدٍ وَبَلَجَازٍ عَلَيْهِ مَا يَجُوزُ على المُخَدَّثَاتِ مِنَ المَوْتِ والفَنَاءِ والتَّغْيِيرِ والتَّطَوُّرِ، وَلَكَانَ ذَلِكَ خُرُوجًا مِنْ مُقْتَضَى البُرْهَانِ العَقْلِيِّ على اسْتِحَالَةِ التَّغْيِيرِ والتَّحَوُّلِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ عَلَى اللهِ. ولا يَصِحُّ إِهْمَالُ العَقْلِ لَأَنَّ الشَّرْعَ لا يَأْتِي إِلَّا بِمُجَوِّزَاتِ العَقْلِ أي إِلَّا بِمَا يَقْبَلُهُ العَقْلُ لَأَنَّهُ شَاهِدُ الشَّرْعِ، فَالعَقْلُ يَقْضِي بِأَنَّ الجِسْمَ والجِسْمَانِيَّاتِ أي الْأَحْوَالَ العَارِضَةَ للجِسْمِ مُحَدَّثَةٌ لا مُحَالَةٌ وَأَنَّهَا مُحْتَاجَةٌ لِمُحَدِّثٍ، فَيَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ الْمُتَّصِفُ بِهَا لَهُ مُحَدِّثٌ ولا تَصِحُّ الْأُلُوْهِيَّةُ لِمَنْ يَحْتَاجُ إِلَى غَيْرِهِ، لَأَنَّ الدَّلَائِلَ العقليةَ على حدوثِ العالمِ طَرُوءُ صِفَاتٍ لم تكن عليه والتحولُ من حَالٍ إِلَى حَالٍ.

سَبَبُ نُزُولِ الْإِخْلَاصِ

قَالَتِ الْيَهُودُ لِلرَّسُولِ ﷺ: صِفْ لَنَا رَبَّكَ^(١) قَدْ كَانَ سُؤَالُهُمْ تَعْنَتًا (أي عِنَادًا) لا حُبًّا لِلْعِلْمِ واسْتِزْشَادًا بِهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ سُورَةَ الْإِخْلَاصِ: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ أي الذي لا يَقْبَلُ التَّعَدُّدَ والكَثْرَةَ وَلَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي الدَّاتِ أو الصِّفَاتِ أو الْأَفْعَالِ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ

^(١) أخرج البيهقي عن ابن عباس: أنَّ اليهود أتوا إلى النبي فقالوا: يا محمد صف لنا ربك الذي تعبد. فنزلت: قل هو الله أحد...، إلى آخر السورة قال رسول الله: "هذه صفة ربي عز وجل".

صِفَةُ كَصِفَاتِهِ، بَلْ قُدْرَتُهُ تَعَالَى قُدْرَةُ وَاحِدَةٍ يَقْدِرُ بِهَا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَعِلْمُهُ وَاحِدٌ يَعْلَمُ بِهِ كُلَّ شَيْءٍ.

قوله تعالى ﴿اللَّهُ الصَّكَمُ﴾ أي الذي تفتقر إليه جميع المخلوقات، مع استغنائه عن كل موجود. والذي يُقصد عند الشدة بجميع أنواعها ولا يَجْتَلِبُ بخلقه نفعاً لنفسه ولا يدفع بهم عن نفسه ضرراً.

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ نفى للمادية والانحلال وهو أن ينحل منه شيء أو أن يحل هو في شيء.

وما ورد في كتاب "مولد العروس" من أن الله تعالى قبض قبضة من نور وجهه فقال لها كوني محمداً فكانت محمداً فهذه من الأباطيل المدسوسة، وحكم من يعتقد أن محمداً ﷺ جزء من الله تعالى التكفير قطعاً، وكذلك الذي يعتقد في المسيح أنه جزء من الله. وليس هذا الكتاب لابن الجوزي رحمه الله، ولم ينسبه إليه إلا المستشرق بروكلمان. قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ أي لا نظير له بوجه من الوجوه.

الآيات المحكمات والمتشابهات

لفهم هذا الموضوع كما ينبغي يجب معرفة أن القرآن توجد فيه آيات محكمات وآيات متشابهات، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [سورة آل عمران].

الآيات المحكمات: هي ما لا يحتمل من التأويل بحسب وضع اللغة إلا وجهها واحداً، أو ما عرف المراد به بوضوح كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص]، وَقَوْلِهِ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [سورة مريم].

الآيَاتِ الْمُتَشَابِهَةُ: وَالْمُتَشَابَهُ هُوَ مَا لَمْ تَتَّضِحْ دِلَالَتُهُ أَوْ يَحْتَمِلُ أَوْجُهًا عَدِيدَةً وَاحْتِاجَ إِلَى النَّظَرِ لِحُمْلِهِ عَلَى الْوَجْهِ الْمُطَابِقِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [سورة طه].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [سورة فاطر] أَيْ أَنَّ الْكَلِمَ الطَّيِّبَ كَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَصْعَدُ إِلَى مَحَلِّ كَرَامَتِهِ وَهُوَ السَّمَاءُ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ أَيْ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ يَرْفَعُ الْعَمَلَ الصَّالِحَ وَهَذَا مُنْطَبِقٌ وَمُنْسَجِمٌ مَعَ الْآيَةِ الْمُحْكَمَةِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى].

فَتَفْسِيرُ الْآيَاتِ الْمُتَشَابِهَةِ يَجِبُ أَنْ يُرَدَّ إِلَى الْآيَاتِ الْمُحْكَمَةِ، هَذَا فِي الْمُتَشَابِهِ الَّذِي يَجُوزُ لِلْعُلَمَاءِ أَنْ يَعْلَمُوهُ. وَأَمَّا الْمُتَشَابَهُ الَّذِي أُريدَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [سورة آل عمران] عَلَى قِرَاءَةِ الْوَقْفِ عَلَى لَفْظِ الْجَلَالَةِ فَهُوَ مَا كَانَ مِثْلَ وَجِبَةِ الْقِيَامَةِ، وَخُرُوجِ الدِّجَالِ عَلَى التَّحْدِيدِ، فَلَيْسَ مِنْ قَبِيلِ آيَةِ الْإِسْتِوَاءِ.

وَقَدْ وَرَدَ عَنْهُ ﷺ: «اعْمَلُوا بِمُحْكَمِهِ وَءَامِنُوا بِمُتَشَابِهِهِ» ضَعِيفٌ ضَعْفًا خَفِيفًا. وَقَدْ بَيَّنَّ أَبُو نَصْرِ الْقُشَيْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ الشَّنَاعَةَ الَّتِي تَلَزِمُ نِفَاةَ التَّأْوِيلِ، وَأَبُو نَصْرِ الْقُشَيْرِيُّ هُوَ الَّذِي وَصَفَهُ الْحَافِظُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ الطَّبْصِيُّ بِإِمَامِ الْأَيْمَةِ كَمَا نَقَلَ ذَلِكَ الْحَافِظُ ابْنُ عَسَاكِرٍ فِي كِتَابِهِ تَبْيِينُ كَذِبِ الْمُفْتَرِي.

قَالَ الْمُحَدِّثُ اللَّغَوِيُّ الْفَقِيهُ الْحَنْفِيُّ مُرْتَضَى الزَّيْدِيُّ فِي شَرْحِهِ الْمُسَمَّى "إِتْحَافُ السَّادَةِ الْمُتَّقِينَ" نَقْلًا عَنْ كِتَابِ التَّذَكُّرَةِ الشَّرْقِيَّةِ لِأَبِي نَصْرِ الْقُشَيْرِيِّ مَا نَصَّهُ:

"وَأَمَّا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۖ﴾ [سورة آل عمران] إِنَّمَا يُرِيدُ بِهِ وَقْتُ قِيَامِ السَّاعَةِ، فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ عَنْ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا وَمَتَى وَقُوعُهَا. فَالْمُتَشَابِهُ إِشَارَةٌ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ، فَلَيْسَ يَعْلَمُ عَوَاقِبَ الْأُمُورِ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ [سورة الأعراف] أي: هل ينظرون إلا قيام السَّاعَةِ، وكيفَ يَسُوعُ لِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى مَا لَا سَبِيلَ لِمَخْلُوقٍ إِلَى مَعْرِفَتِهِ وَلَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ أَلَيْسَ هَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْقَدَحِ فِي التَّبَوَاتِ؟ وَأَنَّ النَّبِيَّ مَا عَرَفَ تَأْوِيلَ مَا وَرَدَ فِي صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَدَعَا الْخَلْقَ إِلَى عِلْمِ مَا لَا يُعْلَمُ؟

أَلَيْسَ اللَّهُ يَقُولُ: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [سورة الشعراء] فَإِذَا عَلَى زَعْمِهِمْ يَجِبُ أَنْ يَقُولُوا كَذَبَ حَيْثُ قَالَ: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [سورة الشعراء] إِذْ لَمْ يَكُنْ مَعْلُومًا عَنْدهُمْ. وَإِلَّا فَأَيْنَ هَذَا الْبَيَانُ وَإِذَا كَانَ بُلُغَةُ الْعَرَبِ فَكَيْفَ يَدَّعِي أَنَّهُ بِمَا لَا تَعْلَمُهُ الْعَرَبُ لَمَّا كَانَ ذَلِكَ الشَّيْءُ عَرَبِيًّا، فَمَا قَوْلُ فِي مَقَالٍ مَالُهُ إِلَى تَكْذِيبِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ.

ثُمَّ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى فَلَوْ كَانَ فِي كَلَامِهِ وَفِي مَا يُلْقِيهِ إِلَى أُمَّتِهِ شَيْءٌ لَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى لَكَانَ لِلْقَوْمِ أَنْ يَقُولُوا بَيْنَ لَنَا أَوَّلًا مَنْ تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَمَا الَّذِي تَقُولُ فَإِنَّ الْإِيمَانَ بِمَا لَا يَعْلَمُ أَصْلُهُ غَيْرُ مُتَأَتٍّ - أَيِ لَا يُمَكِّنُ - هَذَا مَعْنَاهُ أَنَّ الْعَرَبَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ كَانُوا قَالُوا لَهُ هَذَا لَا يُمَكِّنُ. وَنَسَبَةُ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى أَنَّهُ دَعَا إِلَى رَبِّ مَوْصُوفٍ بِصِفَاتٍ لَا تُعْقَلُ أَمْرٌ عَظِيمٌ لَا يَتَخَيَّلُهُ مُسْلِمٌ. فَإِنَّ الْجَهْلَ بِالصِّفَاتِ يُؤَدِّي إِلَى الْجَهْلِ بِالْمَوْصُوفِ. وَالْعَرَضُ أَنَّ يَسْتَبِينَ مَنْ مَعَهُ مُسْكَةٌ مِنَ الْعَقْلِ أَنَّ قَوْلَ مَنْ يَقُولُ: "اسْتَوَاهُ صِفَةً ذَاتِيَّةً لَا يُعْقَلُ مَعْنَاهَا، وَالْيَدُ صِفَةً ذَاتِيَّةً لَا يُعْقَلُ مَعْنَاهَا، وَالْقَدَمُ صِفَةً ذَاتِيَّةً لَا يُعْقَلُ مَعْنَاهَا" تَمْوِيَةٌ ضَمْنُهُ تَكْيِيفٌ وَتَشْبِيهٌُ وَدُعَاءٌ إِلَى الْجَهْلِ وَقَدْ وَضَحَ الْحَقُّ لِذِي عَيْنَيْنِ. وَلَيْتَ شِعْرِي هَذَا الَّذِي يُنَكِّرُ التَّأْوِيلَ يُطَرِّدُ هَذَا الْإِنْكَارَ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَفِي كُلِّ آيَةٍ أَمْ يَقْنَعُ بِتَرْكِ التَّأْوِيلِ فِي صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى.

فَإِنْ امْتَنَعَ مِنَ التَّأْوِيلِ أَصْلًا فَقَدْ أَبْطَلَ الشَّرِيعَةَ وَالْعُلُومَ إِذْ مَا مِنْ آيَةٍ (من الآيات التي اختلف فيها من حيث التأويل وتركه) وَخَبَرٍ إِلَّا وَیَحْتَاجُ إِلَى تَأْوِيلٍ وَتَصَرُّفٍ فِي الْكَلَامِ (إِلَّا الْمُحْكَمَ نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة الحديد] مِمَّا وَرَدَ فِي صِفَاتِ اللَّهِ، وَقَوْلِهِ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنَزِيرِ﴾ [سورة المائدة] الْآيَةِ مِمَّا وَرَدَ فِي الْأَحْكَامِ)، لِأَنَّ نَمَّ أَشْيَاءَ لَا بُدَّ مِنْ تَأْوِيلِهَا لَا خِلَافَ بَيْنَ الْعُقَلَاءِ فِيهِ إِلَّا الْمُلْحِدَةَ الَّذِينَ قَصَدُوهُمْ التَّعْطِيلُ لِلشَّرَائِعِ.

والاعتقاد لهذا يُؤدِّي إلى إبطال ما هُوَ عَلَيْهِ مِنَ التَّمَسُّكِ بِالشَّرْعِ بِزَعْمِهِ. وَإِنْ قَالَ يَجُوزُ التَّأْوِيلُ عَلَى الْجُمْلَةِ (أَيِ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ) إِلَّا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِاللَّهِ وَبِصِفَاتِهِ فَلَا تَأْوِيلَ فِيهِ، فَهَذَا مَصِيرٌ مِنْهُ إِلَى أَنَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى يَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِالصَّانِعِ [أَيِ الْخَالِقِ] وَصِفَاتِهِ يَجِبُ التَّقَاصِي عَنْهُ (أَيِ الْبُعْدُ عَنْهُ). وَهَذَا لَا يَرْضَى بِهِ مُسْلِمٌ. وَسِرُّ الْأَمْرِ أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَمْتَنِعُونَ عَنِ التَّأْوِيلِ مُعْتَقِدُونَ حَقِيقَةَ التَّشْبِيهِ غَيْرَ أَنَّهُمْ يُدَلِّسُونَ وَيَقُولُونَ لَهُ يَدٌ لَا كَالْأَيْدِي وَقَدَمٌ لَا كَالْأَقْدَامِ وَاسْتِوَاءٌ بِالذَّاتِ لَا كَمَا نَعْقِلُ فِيمَا بَيْنَنَا، فَلْيَقُلِ الْمُحَقِّقُ هَذَا كَلَامٌ لَا بُدَّ مِنْ اسْتِيبَانٍ، قَوْلُكُمْ نُجْرِي الْأَمْرَ عَلَى الظَّاهِرِ وَلَا يُعْقَلُ مَعْنَاهُ تَنَافُضٌ. إِنْ أُجْرِيَتْ عَلَى الظَّاهِرِ فَظَاهِرُ السِّيَاقِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ [سورة القلم] هُوَ الْعُضْوُ الْمُشْتَمِلُ عَلَى الْجِلْدِ وَاللَّحْمِ وَالْعَظْمِ وَالْعَصَبِ وَالْمُخِّ. فَإِنْ أَخَذْتَ بِهَذَا الظَّاهِرِ وَالتَّزَمْتَ بِالْإِقْرَارِ بِهَذِهِ الْأَعْضَاءِ فَهُوَ الْكُفْرُ. وَإِنْ لَمْ يُمَكِّنْكَ الْأَخْذُ بِهَا (أَيِ إِنْ كُنْتَ لَا تَقُولُ ذَلِكَ) فَأَيْنَ الْأَخْذُ بِالظَّاهِرِ. أَلَسْتَ قَدْ تَرَكْتَ الظَّاهِرَ وَعَلِمْتَ تَقْدُسَ الرَّبِّ تَعَالَى عَمَّا يُؤْهِمُ الظَّاهِرَ فَكَيْفَ يَكُونُ أَخْذًا بِالظَّاهِرِ، وَإِنْ قَالَ الْخَصْمُ هَذِهِ الظَّوَاهِرُ لَا مَعْنَى لَهَا أَصْلًا فَهُوَ حُكْمٌ بِأَنَّهَا مُلْغَاةٌ، وَمَا كَانَ فِي إِبْلَاغِهَا إِلَيْنَا فَائِدَةٌ وَهِيَ هَذَرٌ وَهَذَا مُحَالٌ. وَفِي لُغَةِ الْعَرَبِ مَا شِئْتَ مِنَ التَّجَوُّزِ وَالتَّوَسُّعِ فِي الْخِطَابِ وَكَانُوا يَعْرِفُونَ مَوَارِدَ الْكَلَامِ وَيَفْهَمُونَ الْمَقَاصِدَ، فَمَنْ تَحَافَى عَنْ

التأويل فذلك لِقَلَّةِ فَهْمِهِ بِالْعَرَبِيَّةِ. وَمَنْ أَحَاطَ بِطُرُقِ مِنَ الْعَرَبِيَّةِ هَانَ عَلَيْهِ مَذْرُؤُ الْحَقَائِقِ.

وَقَدْ قِيلَ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [سورة آل عمران] فَكَأَنَّهُ قَالَ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ أَيْضًا يَعْلَمُونَهُ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ، فَإِنَّ الْإِيمَانَ بِالشَّيْءِ إِنَّمَا يُتَصَوَّرُ بَعْدَ الْعِلْمِ، أَمَّا مَا لَا يُعْلَمُ فَالْإِيمَانُ بِهِ غَيْرُ مُتَأَتٍّ، وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَنَا مِنَ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ". انتهى كلامُ الحافظِ الزَّيْدِيِّ مِمَّا نَقَلَهُ عَنْ أَبِي النُّصَيْرِ الْقَشِيرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ.

فَهُنَا مَسْلُكَانِ كُلُّ مِنْهُمَا صَحِيحٌ:

الأَوَّلُ: مَسْلُكُ السَّلَفِ: وَهُمْ أَهْلُ الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ الْأُولَى أَيْ أَكْثَرُهُمْ فَإِنَّهُمْ يُؤَوَّلُونَهَا تَأْوِيلًا إجمالًا بِالْإِيمَانِ بِهَا وَاعْتِقَادِ أَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ صِفَاتِ الْجِسْمِ بَلْ أَنَّ لَهَا مَعْنًى يَلِيْقُ بِجَلَالِ اللَّهِ وَعَظَمَتِهِ بَلَا تَعْيِينَ، بَلْ رَدُّوا تِلْكَ الْآيَاتِ إِلَى الْآيَاتِ الْحَكَمَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى].

وَهُوَ كَمَا قَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "ءَامَنْتُ بِمَا جَاءَ عَنِ اللَّهِ عَلَى مُرَادِ اللَّهِ وَبِمَا جَاءَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى مُرَادِ رَسُولِ اللَّهِ" يَعْنِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَا عَلَى مَا قَدْ تَذَهَّبَ إِلَيْهِ الْأَوْهَامُ وَالظُّنُونُ مِنَ الْمَعَانِي الْحِسِّيَّةِ الْجِسْمِيَّةِ الَّتِي لَا تَجُوزُ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى.

ثُمَّ نَفَى التَّأْوِيلَ التَّفْصِيلِيَّ عَنِ السَّلَفِ كَمَا زَعَمَ بَعْضُ مَرْدُودٍ بِمَا فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ فِي كِتَابِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ وَعِبَارَتُهُ هُنَاكَ: "سُورَةُ الْقَصَصِ" ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [سورة القصص] "إِلَّا مُلْكُهُ وَيُقَالُ مَا يَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَيْهِ" ا.هـ. فَمُلْكُ اللَّهِ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ الْأَزَلِيَّةِ أَيْ سُلْطَانِهِ لَيْسَ كَالْمُلْكِ الَّذِي يُعْطَاهُ لِلْمَخْلُوقِينَ.

وَفِيهِ غَيْرُ هَذَا الْمَوْضِعِ كِتَاوِيلِ الضَّحِكِ الْوَاردِ فِي الْحَدِيثِ بِالرَّحْمَةِ.

وَصَحَّ أَيْضًا التَّأْوِيلُ التَّفْصِيلِيُّ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَهُوَ مِنَ السَّلَفِ فَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ ۚ﴾ [سورة الفجر] إِنَّمَا جَاءَتْ قُدْرَتُهُ، صَحَّحَ سَنَدَهُ الْحَافِظُ الْبَيْهَقِيُّ الَّذِي قَالَ فِيهِ الْحَافِظُ صَلَاحُ الدِّينِ الْعَلَايِيُّ: "لَمْ يَأْتِ بَعْدَ الْبَيْهَقِيِّ وَالْدَّارِ قُطَنِيٍّ مِثْلَهُمَا وَلَا مِنْ يُقَارِبُهُمَا". أَمَّا قَوْلُ الْبَيْهَقِيِّ ذَلِكَ فِي كِتَابِ مَنَاقِبِ أَحْمَدَ، وَأَمَّا قَوْلُ الْحَافِظِ أَبِي سَعِيدٍ الْعَلَايِيِّ فِي الْبَيْهَقِيِّ وَالْدَّارِ قُطَنِيٍّ فَذَلِكَ فِي كِتَابِهِ "الْوَشْيُ الْمُعْلَمُ"، وَأَمَّا الْحَافِظُ أَبُو سَعِيدٍ فَهُوَ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ: "شَيْخُ مَشَايِخِنَا" وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْقَرْنِ الثَّامِنِ الْمَهْجَرِيِّ.

وَهُنَاكَ خَلَقَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ ذَكَرُوا فِي تَأْلِيْفِهِمْ أَنَّ أَحْمَدَ أَوَّلَ، مِنْهُمْ الْحَافِظُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْجَوَازِيِّ الَّذِي هُوَ أَحَدُ أَسَاطِينِ الْمَذْهَبِ الْحَنْبَلِيِّ لِكَثْرَةِ إِطْلَاعِهِ عَلَى نُصُوصِ الْمَذْهَبِ وَأَحْوَالِ أَحْمَدَ.

الثَّانِي مَسَلُّكَ الْخَلْفِ: وَهُمْ يُؤَوَّلُونَهَا تَفْصِيلًا بِتَعْيِينِ مَعَانٍ لَهَا بِمَا تَقْتَضِيهِ لُغَةُ الْعَرَبِ وَلَا يَحْمِلُونَهَا عَلَى ظَوَاهِرِهَا أَيْضًا كَالسَّلَفِ. وَلَا بَأْسَ بِسُلُوكِهِ وَلَا سِيِّمًا عِنْدَ الْخَوْفِ مِنْ تَزَلُّلِ الْعَقِيدَةِ حِفْظًا مِنَ التَّشْبِيهِ.

مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي تَوْبِيخِ إِبْلِيسَ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي ۚ﴾ [سورة ص]. فَيَجُوزُ أَنْ يُقَالَ الْمُرَادُ بِالْيَدَيْنِ الْعِنَايَةُ وَالْحِفْظُ.

تفسير قوله تعالى: ﴿مِنْ رُوحِنَا﴾

وقوله تعالى: ﴿مِنْ رُوحِي﴾

لِيُعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَالِقُ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ فَلَيْسَ رُوحًا وَلَا جَسَدًا، وَمَعَ ذَلِكَ أَضَافَ اللَّهُ تَعَالَى رُوحَ عِيسَى ﷺ إِلَى نَفْسِهِ عَلَى مَعْنَى الْمَلِكِ وَالتَّشْرِيفِ لَا لِلْجُزْئِيَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنْ رُوحِنَا﴾ [سورة الأنبياء]، وَكَذَلِكَ فِي حَقِّ آدَمَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿مِنْ رُوحِي﴾ [سورة

ص [فَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ ﴿١١﴾] [سورة الأنبياء] أَمَرْنَا جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَنْفُخَ فِي مَرْيَمَ الرُّوحَ الَّتِي هِيَ مَلِكٌ لَنَا وَمُشَرَّفَةٌ عِنْدَنَا. لَأَنَّ الْأَرْوَاحَ قِسْمَانِ: أَرْوَاحُ مُشَرَّفَةٌ، وَأَرْوَاحُ خَبِيثَةٌ. وَأَرْوَاحُ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْقِسْمِ الْأَوَّلِ، فَإِضَافَةُ رُوحِ عِيسَى وَرُوحِ آدَمَ إِلَى نَفْسِهِ إِضَافَةٌ مِلْكٍ وَتَشْرِيفٍ.

وَيَكْفُرُ مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى رُوحٌ، فَالرُّوحُ مَخْلُوقَةٌ تَنْزَعُ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْكَعْبَةِ ﴿يَتَّقِي﴾ ﴿٢٦﴾ [سورة الحج] فَهِيَ إِضَافَةٌ مِلْكٍ لِلتَّشْرِيفِ لَا إِضَافَةٌ صِفَةٍ أَوْ مُلَابَسَةٍ لاسْتِحَالَةِ الْمُلَامَسَةِ أَوْ الْمُمَاسَةِ بَيْنَ اللَّهِ وَالْكَعْبَةِ. وَكَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ﴾ ﴿١١٣﴾ [سورة المؤمنون] لَيْسَ إِلَّا لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ خَالِقُ الْعَرْشِ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ الْمَخْلُوقَاتِ لَيْسَ لِأَنَّ الْعَرْشَ لَهُ مُلَابَسَةٌ لِلَّهِ بِالْجُلُوسِ عَلَيْهِ أَوْ بِمَحَازَاتِهِ مِنْ غَيْرِ جُلُوسٍ، لَيْسَ الْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ جَالِسٌ عَلَى عَرْشِهِ بِاتِّصَالٍ وَلَيْسَ الْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ مُحَازٍ لِلْعَرْشِ بِوُجُودِ فَرَاغٍ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ الْعَرْشِ إِنْ قُدِّرَ ذَلِكَ الْفَرَاغُ وَاسِعًا أَوْ قَصِيرًا كُلُّ ذَلِكَ مُسْتَحِيلٌ عَلَى اللَّهِ، وَإِنَّمَا مَزِيَّةُ الْعَرْشِ أَنَّهُ كَعْبَةُ الْمَلَائِكَةِ الْحَافِينَ مِنْ حَوْلِهِ كَمَا أَنَّ الْكَعْبَةَ شُرِفَتْ بِطَوَافِ الْمُؤْمِنِينَ بِهَا. وَمِنْ خَوَاصِّ الْعَرْشِ أَنَّهُ لَمْ يُعَصَّ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ، لِأَنَّ مَنْ حَوْلَهُ كُلُّهُمْ عِبَادٌ مَكْرُمُونَ لَا يَعَصُونَ اللَّهَ طَرَفَةً عَيْنٍ، وَمَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْعَرْشَ لِيَجْلِسَ عَلَيْهِ فَقَدْ شَبَّهَ اللَّهَ بِالْمَلُوكِ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الْأَسِرَّةَ الْكِبَارَ لِيَجْلِسُوا عَلَيْهَا وَمَنْ اعْتَقَدَ هَذَا لَمْ يَعْرِفِ اللَّهَ.

وَيَكْفُرُ مَنْ يَعْتَقِدُ الْمُمَاسَةَ لاسْتِحَالَتِهَا فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى.

تَفْسِيرُ الْآيَةِ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ﴿٥﴾

يَجِبُ أَنْ يَكُونَ تَفْسِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ بِغَيْرِ الْاسْتِقْرَارِ وَالْجُلُوسِ وَنَحْوِ ذَلِكَ وَيَكْفُرُ مَنْ يَعْتَقِدُ ذَلِكَ. فَيَجِبُ تَرْكُ الْحَمْلِ عَلَى الظَّاهِرِ بَلْ يُحْمَلُ عَلَى مُحْمِلٍ مُسْتَقِيمٍ فِي الْعُقُولِ فَتَحْمَلُ لَفْظَةُ الْاسْتِوَاءِ عَلَى الْقَهْرِ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ يُقَالُ اسْتَوَى فُلَانٌ عَلَى الْمَمَالِكِ إِذَا اخْتَوَى عَلَى مَقَالِيدِ الْمَمْلُوكِ وَاسْتَعْلَى عَلَى الرِّقَابِ. كَقَوْلِ الشَّاعِرِ:

قَدْ اسْتَوَى بِشَرٍّ عَلَى الْعِرَاقِ مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مُهْرَاقِ

وَفَائِدَةُ تَخْصِيصِ الْعَرْشِ بِالذِّكْرِ أَنَّهُ أَعْظَمُ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ تَعَالَى حَجْمًا فَيَعْلَمُ شُؤْلُ مَا دُونَهُ مِنْ بَابِ الْأَوَّلَى. قَالَ الْإِمَامُ عَلِيُّ: "إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْعَرْشَ إِظْهَارًا لِقُدْرَتِهِ، وَلَمْ يَتَّخِذْهُ مَكَانًا لِدَاتِهِ". رَوَاهُ الْإِمَامُ الْمَحْدَثُ الْفَقِيهُ اللَّغَوِيُّ أَبُو مَنْصُورٍ التَّمِيمِيُّ فِي كِتَابِهِ التَّبَصُّرَةِ.

أَوْ يُقَالُ: اسْتَوَى اسْتِوَاءً يَعْلَمُهُ هُوَ مَعَ تَنْزِيهِهِ عَنِ اسْتِوَاءِ الْمَخْلُوقِينَ كَالْجُلُوسِ وَالْاسْتِقْرَارِ.

وَأَعْلَمَ أَنَّهُ يَجِبُ الْحَذَرُ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُجِيزُونَ عَلَى اللَّهِ الْقُعُودَ عَلَى الْعَرْشِ وَالْاسْتِقْرَارَ عَلَيْهِ مُفَسِّرِينَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ﴿٥﴾ [سورة طه] بِالْجُلُوسِ أَوْ الْمَحَازَةِ مِنْ فَوْقٍ. وَمُدَّعِينَ أَنَّهُ لَا يُعْقَلُ مَوْجُودٌ إِلَّا فِي مَكَانٍ، وَحُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ. وَمُدَّعِينَ أَيْضًا أَنَّ قَوْلَ السَّلَفِ اسْتَوَى بِلا كَيْفٍ مُوَافِقٌ لِدَلِيلِهِ وَلَمْ يَدْرُوا أَنَّ الْكَيْفَ الَّذِي نَفَاهُ السَّلَفُ هُوَ الْجُلُوسُ وَالْاسْتِقْرَارُ وَالتَّحْيِيزُ فِي الْمَكَانِ وَالْمَحَازَةِ وَكُلُّ الْهَيْئَاتِ مِنْ حَرَكَةٍ وَسُكُونٍ وَانْفِعَالٍ.

قَالَ الْقُشَيْرِيُّ: "وَالَّذِي يَدَّخِصُ شُبْهَهُمْ أَنَّ يُقَالَ لَهُمْ: قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْعَالَمَ أَوْ الْمَكَانَ هَلْ كَانَ موجودًا أَمْ لَا؟ فَمِنْ ضَرُورَةِ الْعَقْلِ أَنْ يَقُولَ بَلَى فَيَلْزِمُهُ لَوْ صَحَّ قَوْلُهُ لَا يَعْلَمُ

مَوْجُودٌ إِلَّا فِي مَكَانٍ أَحَدُ أَمْرَيْنِ: إمَّا أَنْ يَقُولَ: الْمَكَانُ وَالْعَرْشُ وَالْعَالَمُ قَدِيمٌ، وَإِمَّا أَنْ يَقُولَ: الرَّبُّ تَعَالَى مُحَدَّثٌ، وَهَذَا مَالُ الْجَهْلَةِ الْحَشَوِيَّةِ، لَيْسَ الْقَدِيمُ بِالْمُحَدَّثِ وَالْمُحَدَّثُ بِالْقَدِيمِ "اهـ.

وَقَالَ الْقَشِيرِيُّ أَيْضًا فِي التَّذَكُّرَةِ الشَّرْقِيَّةِ: "فَإِنْ قِيلَ أَلَيْسَ اللَّهُ يَقُولُ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [سورة طه] فَيَجِبُ الْأَخْذُ بِظَاهِرِهِ، قُلْنَا: اللَّهُ يَقُولُ أَيْضًا: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [سورة الحديد]، وَيَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ [سورة فصلت] فَيَنْبَغِي أَيْضًا أَنْ نَأْخُذَ بِظَاهِرِ هَذِهِ الْآيَاتِ حَتَّى يَكُونَ عَلَى الْعَرْشِ وَعِنْدَنَا وَمَعَنَا وَمُحِيطًا بِالْعَالَمِ مُحَدِّثًا بِهِ بِالذَّاتِ فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ.

قَالَ الْقَشِيرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالْوَاحِدُ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ بِذَاتِهِ فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ بِكُلِّ مَكَانٍ. قَالَ الْقَشِيرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "قَالُوا: قَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [سورة الحديد] يَعْنِي بِالْعِلْمِ، وَ: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ [سورة فصلت] إِحَاطَةُ الْعِلْمِ، قُلْنَا: وَقَوْلُهُ: ﴿عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ قَهَرَ وَحَفِظَ وَأَبْقَى"، انتهى.

يَعْنِي أَنَّهُمْ قَدْ أَوَّلُوا هَذِهِ الْآيَاتِ وَلَمْ يَحْمِلُوهَا عَلَى ظَوَاهِرِهَا فَكَيْفَ يَعْيَبُونَ عَلَى غَيْرِهِمْ تَأْوِيلَ آيَةِ الاسْتِوَاءِ بِالْقَهْرِ، فَمَا هَذَا التَّحَكُّمُ؟!

ثُمَّ قَالَ الْقَشِيرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "وَلَوْ أَشْعَرَ مَا قُلْنَا تَوَهُّمَ غَلْبَتِهِ لِأَشْعَرَ قَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [سورة الأنعام] بِذَلِكَ أَيْضًا حَتَّى يُقَالَ كَانَ مَقْهُورًا قَبْلَ خَلْقِ الْعِبَادِ هَيْهَاتَ إِذْ لَمْ يَكُنْ لِلْعِبَادِ وَجُودٌ قَبْلَ خَلْقِهِ إِيَّاهُمْ بَلْ لَوْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا تَوَهُّمُهُ الْجَهْلَةُ مِنْ أَنَّهُ اسْتِوَاءٌ بِالذَّاتِ لِأَشْعَرَ ذَلِكَ بِالتَّغْيِيرِ وَاعْوَجَاجٍ سَابِقٍ عَلَى وَقْتِ الاسْتِوَاءِ فَإِنَّ الْبَارِيَّ تَعَالَى كَانَ مَوْجُودًا قَبْلَ الْعَرْشِ، وَمَنْ أَنْصَفَ عِلْمَ أَنَّ قَوْلَ مَنْ يَقُولُ: الْعَرْشُ بِالرَّبِّ

اسْتَوَى أَمْثَلُ مِنْ قَوْلٍ مَنْ يَقُولُ الرَّبُّ بِالْعَرْشِ اسْتَوَى، فَالرَّبُّ إِذَا مَوْصُوفٌ بِالْعُلُوِّ وَفَوْقِيَّةِ الرَّتَبَةِ وَالْعِظَمَةِ وَمُنَزَّةٌ عَنِ الْكَوْنِ فِي الْمَكَانِ وَعَنِ الْمُحَادَاةِ " اهـ.

قال القشيري رحمه الله: "وَقَدْ نَبَغَتْ نَابِغَةٌ مِنَ الرَّعَاعِ لَوْلَا اسْتِنَزَاهُمْ لِلْعَوَامِّ بِمَا يَقْرُبُ مِنْ أَفْهَامِهِمْ وَيُتَصَوَّرُ فِي أَوْهَامِهِمْ لِأَجَلَّتْ هَذَا الْكِتَابَ عَنْ تَلْطِيقِهِ بِذِكْرِهِمْ، يَقُولُونَ: نَحْنُ نَأْخُذُ بِالظَّاهِرِ وَنَحْمِلُ الْآيَاتِ الْمُوهِمَةَ تَشْبِيهًا وَالْأَخْبَارَ الْمُوهِمَةَ حَدًّا وَعُضْوًا عَلَى الظَّاهِرِ وَلَا يَجُوزُ أَنْ نُنْطَرِقَ التَّأْوِيلَ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَيَتِمَسَّكُونَ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۖ﴾ [سورة آل عمران]. وهؤلاء والذي أَرْوَاهُنَا بِيَدِهِ أَضُرَّ عَلَى الْإِسْلَامِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ لِأَنَّ ضَلَالَاتِ الْكُفَّارِ ظَاهِرَةٌ يَتَجَنَّبُهَا الْمُسْلِمُونَ، وهؤلاء أَتَوَا الدِّينَ وَالْعَوَامِّ مِنْ طَرِيقٍ يَغْتَرُّ بِهِ الْمُسْتَضْعَفُونَ فَأَوْحُوا إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ بِهَذِهِ الْبِدْعِ وَأَحْلَوْا فِي قُلُوبِهِمْ وَصَفَ الْمَعْبُودِ سُبْحَانَهُ بِالْأَعْضَاءِ وَالْجَوَارِحِ وَالرُّكُوبِ وَالنُّزُولِ وَالْإِتْكَاءِ وَالْإِسْتِلْقَاءِ وَالْإِسْتِوَاءِ بِالذَّاتِ وَالتَّرَدُّدِ فِي الْجِهَاتِ.

قال القشيري رحمه الله: "فَمَنْ أَصْغَى إِلَى ظَاهِرِهِمْ يُبَادِرُ بِوَهْمِهِ إِلَى تَحْيِيلِ الْمَحْسُوسَاتِ فَاعْتَقَدَ الْفَضَائِحَ فَسَالَ بِهِ السَّيْلُ وَهُوَ لَا يَدْرِي". اهـ.

فَتَبَيَّنَ أَنَّ قَوْلَ مَنْ يَقُولُ: "إِنَّ التَّأْوِيلَ غَيْرُ جَائِزٍ" خَبْطٌ وَجَهْلٌ وَهُوَ مُحْجُوجٌ بِقَوْلِهِ ﷺ لابن عباس: "اللَّهُمَّ عَلِّمَهُ الْحِكْمَةَ وَتَأْوِيلَ الْكِتَابِ" رواه ابن ماجة وغيره بألفاظٍ مُتَعَدِّدَةٍ وَأَوَّلُهُ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ الْجُوزِيِّ فِي كِتَابِهِ "الْمَجَالِسُ": "وَلَا شَكَّ أَنَّ اللَّهَ اسْتَجَابَ دُعَاءَ الرَّسُولِ هَذَا" اهـ، وَشَدَّدَ النَّكِيرَ وَالتَّشْنِيعَ عَلَى مَنْ يَمْنَعُ التَّأْوِيلَ وَوَسَّعَ الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ، فَلْيُطَالِعْهُ مَنْ أَرَادَ زِيَادَةَ التَّأَكُّدِ.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [سورة النحل] فَوْقِيَّةُ الْقَهْرِ دُونَ الْمَكَانِ وَالْجِهَةِ أَيْ لَيْسَ فَوْقِيَّةُ الْمَكَانِ وَالْجِهَةِ. وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا

صَفًا ﴿٢٢﴾ [سورة الفجر] لَيْسَ بِحِيءِ الْحَرَكَةِ وَالْإِنْتِقَالِ وَالزَّوَالِ وَإِفْرَاحٍ مَكَانٍ وَمَلْءٍ ءَاخِرٍ
بالنسبة إلى الله وَمَنْ اعْتَقَدَ ذَلِكَ يَكْفُرُ.

فَاللَّهُ تَعَالَى خَلَقَ الْحَرَكَةَ وَالسُّكُونَ وَكُلَّ مَا كَانَ مِنْ صِفَاتِ الْحَوَادِثِ فَلَا يُوصَفُ اللَّهُ
تَعَالَى بِالْحَرَكَةِ وَلَا بِالسُّكُونَ، وَالْمَعْنَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الفجر] جَاءَ أَمْرُ
رَبِّكَ أَيْ أَثَرٌ مِنْ ءَاثَارِ قُدْرَتِهِ. وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَجَاءَ
رَبُّكَ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الفجر] إِنَّمَا جَاءَتْ قُدْرَتُهُ، رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي مَنَاقِبِ أَحْمَدَ وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ.

تَفْسِيرُ مَعِيَّةِ اللَّهِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْقُرْآنِ

وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [سورة الحديد] الْإِحَاطَةُ بِالْعِلْمِ. وَتَأْتِي الْمَعِيَّةُ
أَيْضًا بِمَعْنَى النُّصْرَةِ وَالْكَلاَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [سورة النحل].
وَلَيْسَ الْمَعْنَى بِهَا الْحُلُولُ وَالِاتِّصَالُ وَيَكْفُرُ مَنْ يَعْتَقِدُ ذَلِكَ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنِ
الِاتِّصَالِ وَالْإِنْفِصَالِ بِالْمَسَافَةِ.

فَلَا يُقَالُ إِنَّهُ مُتَّصِلٌ بِالْعَالَمِ وَلَا مُنْفَصِلٌ عَنْهُ بِالْمَسَافَةِ لِأَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ مِنْ صِفَاتِ
الْحَجْمِ وَالْحِجْمِ هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ الْأَمْرَيْنِ وَاللَّهُ جَلَّ وَعَلَا لَيْسَ بِحَادِثٍ، نَفَى ذَلِكَ عَنِ
نَفْسِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى].

وَلَا يُوصَفُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْكِبَرِ حَجْمًا وَلَا بِالصَّغَرِ، وَلَا بِالطُّولِ وَلَا بِالْقِصَرِ، لِأَنَّهُ مُخَالِفٌ
لِلْحَوَادِثِ، وَيَجِبُ طَرْدُ كُلِّ فِكْرَةٍ عَنِ الْأَذْهَانِ تُفْضِي إِلَى تَقْدِيرِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَحْدِيدِهِ.
كَانَ الْيَهُودُ قَدْ نَسَبُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى التَّعَبَ، فَقَالُوا إِنَّهُ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
اسْتَرَاحَ فَاسْتَلْقَى عَلَى قَفَاهُ، وَقَوْلُهُمْ هَذَا كُفْرٌ.

والله تعالى مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ، وَعَنِ الانْفِعَالِ كَالْإِحْسَاسِ بِالتَّعَبِ وَالْآلَامِ وَاللَّذَاتِ، فَالَّذِي تَلَحُّقُهُ هَذِهِ الْأَحْوَالُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ حَادِثًا مَخْلُوقًا يَلْحَقُهُ التَّغْيِيرُ، وَهَذَا يَسْتَحِيلُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [سورة ق: ٣٨].

إِنَّمَا يَلْغِبُ مَنْ يَعْمَلُ بِالْجَوَارِحِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنِ الْجَارِحَةِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [سورة غافر: ٢٠].

فَاللَّهُ تَعَالَى سَمِيعٌ وَبَصِيرٌ بِمَا كَيْفِيَّةٍ، فَالسَّمْعُ وَالْبَصَرُ هُمَا صِفَتَانِ أَرْزَلَتَانِ بِمَا جَارِحَةٍ، أَيْ بِمَا أُذُنٍ أَوْ حَدَقَةٍ وَبِمَا شَرَطِ قُرْبٍ أَوْ بُعْدٍ أَوْ جِهَةٍ، وَبِدُونِ انْبِعَاطِ شُعَاعٍ مِنَ الْبَصَرِ، أَوْ تَمَوُّجِ هَوَاءٍ.

وَمَنْ قَالَ لِلَّهِ أُذُنٌ فَقَدْ كَفَرَ، وَلَوْ قَالَ لَهُ أُذُنٌ لَيْسَتْ كَأُذُنِنَا، بِخِلَافِ مَنْ قَالَ لَهُ عَيْنٌ لَيْسَتْ كَعَيْنُونَا وَيَدٌ لَيْسَتْ كَأَيْدِينَا بَلْ بِمَعْنَى الصَّفَةِ فَإِنَّهُ جَائِزٌ لَوُرُودِ إِطْلَاقِ الْعَيْنِ وَالْيَدِ فِي الْقِرَاءَانِ وَلَمْ يَرُدِّ إِطْلَاقُ الْأُذُنِ عَلَيْهِ.

تَفْسِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [سورة البقرة: ١١٥].

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [سورة البقرة: ١١٥].

الْمَعْنَى: فَأَيْنَمَا تَوَجَّهُوا وَجُوهَكُمْ فِي صَلَاةِ النَّفْلِ فِي السَّفَرِ فَتَمَّ قِبَلُهُ اللَّهُ، أَيْ: فَتِلْكَ الْوَجْهَةُ الَّتِي تَوَجَّهْتُمْ إِلَيْهَا هِيَ قِبَلَةُ لَكُمْ، وَلَا يُرَادُّ بِالْوَجْهِ الْجَارِحَةُ. وَحُكْمُ مَنْ يَعْتَقِدُ الْجَارِحَةَ لِلَّهِ التَّكْفِيرُ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَتْ لَهُ جَارِحَةٌ لَكَانَ مِثْلًا لَنَا يَجُوزُ عَلَيْهِ مَا يَجُوزُ عَلَيْنَا مِنَ الْفَنَاءِ.

وَقَدْ يُرَادُ بِالْوَجْهِ الْجِهَةُ الَّتِي يُرَادُ بِهَا التَّقَرُّبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، كَأَن يَقُولَ أَحَدُهُمْ: "فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا لِوَجْهِ اللَّهِ"، وَمَعْنَى ذَلِكَ "فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى".
وَيَحْتَرِّمُ أَنْ يُقَالَ كَمَا شَاعَ بَيْنَ الْجُهَّالِ: "اِفْتَحِ النَّافِذَةَ لِأَنِّي رَأَيْتُ وَجْهَ اللَّهِ"، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِمُوسَى: ﴿لَنْ تَرِنِي﴾ (١٤٣) [سورة الأعراف]، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ قَصْدُ النَّاطِقِينَ بِهِ رُؤْيَا اللَّهِ فَهُوَ حَرَامٌ.

تفسير: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٣٥)

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٣٥) [سورة الأنعام] مَعْنَاهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هَادِي أَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لِنُورِ الْإِيمَانِ، رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَيْسَ نُورًا بِمَعْنَى الضَّوِّ، بَلْ هُوَ الَّذِي خَلَقَ النُّورَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ (١) [سورة الأنعام].

أَيَّ خَلَقَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ، فَكَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ نُورًا كَخَلْقِهِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

وَحُكْمُ مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى نُورٌ أَيْ ضَوْءٌ التَّكْفِيرُ قَطْعًا. وَهَذِهِ الْآيَةُ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ (١) [سورة الأنعام] أَصْرَحُ دَلِيلٍ عَلَى أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ حَجْمًا كَثِيفًا كَالسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْسَ حَجْمًا لَطِيفًا كَالظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ، فَمَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ اللَّهَ حَجْمٌ كَثِيفٌ أَوْ لَطِيفٌ فَقَدْ شَبَّهَ اللَّهَ بِخَلْقِهِ وَالْآيَةُ شَاهِدَةٌ عَلَى ذَلِكَ. أَكْثَرُ الْمَشَبْهَةِ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَجْمٌ كَثِيفٌ وَبَعْضُهُمْ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ حَجْمٌ لَطِيفٌ حَيْثُ قَالُوا إِنَّهُ نُورٌ يَتَلَأَلُ، فَهَذِهِ الْآيَةُ وَحْدَهَا تَكْفِي لِلرَّدِّ عَلَى الْفَرِيقَيْنِ.

وَهُنَاكَ الْعَدِيدُ مِنَ الْعَقَائِدِ الْكُفْرِيَّةِ كَاغْتِقَادِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذُو لَوْنٍ أَوْ ذُو شَكْلٍ فَلْيَحْذَرِ الْإِنْسَانُ مِنْ ذَلِكَ جَهْدَهُ عَلَى أَيِّ حَالٍ.

مَعْنَى الْقَدَرِ وَالْإِيمَانِ بِهِ

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: الْقَدَرُ هُوَ تَدْبِيرُ الْأَشْيَاءِ عَلَى وَجْهِ مُطَابِقٍ لِعِلْمِ اللَّهِ الْأَزَلِيِّ وَمَشِيئَتِهِ الْأَزَلِيَّةِ فَيُوجِدُهَا فِي الْوَقْتِ الَّذِي عَلِمَ أَنَّهَا تَكُونُ فِيهِ. فَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ عَمَلُ الْعَبْدِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ بِاخْتِيَارِهِ. وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى جِبْرِيلَ حِينَ سَأَلَهُ عَنِ الْإِيمَانِ: "الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ" رواه مسلم.

وَمَعْنَاهُ: أَنَّ الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي قَدَّرَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا الْخَيْرُ وَالشَّرُّ وَجَدَتْ بِتَقْدِيرِ اللَّهِ الْأَزَلِيِّ، وَأَمَّا تَقْدِيرُ اللَّهِ الَّذِي هُوَ صِفَةُ ذَاتِهِ فَهُوَ لَا يُوصَفُ بِالشَّرِّ بَلْ تَقْدِيرُ اللَّهِ لِلشَّرِّ الْكَفَرِ وَالْمَعْصِيَةِ وَتَقْدِيرُهُ لِلْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ حَسَنٌ مِنْهُ لَيْسَ قَبِيحًا. فإِرَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى نَافِذَةٌ فِي جَمِيعِ مُرَادَاتِهِ عَلَى حَسَبِ عِلْمِهِ بِهَا. فَمَا عَلِمَ كَوْنُهُ أَرَادَ كَوْنَهُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ، وَمَا عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ لَمْ يُرَدْ أَنْ يَكُونِ.

فَلَا يَحْدُثُ فِي الْعَالَمِ شَيْءٌ إِلَّا بِمَشِيئَتِهِ وَلَا يُصِيبُ الْعَبْدَ شَيْءٌ مِنَ الْخَيْرِ أَوْ الشَّرِّ أَوْ الصَّحَةِ أَوْ الْمَرَضِ أَوْ الْفَقْرِ أَوْ الْغِنَى أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا يُخْطِئُ الْعَبْدَ شَيْءٌ قَدَّرَ اللَّهُ وَشَاءَ أَنْ يَصِيبَهُ، فَقَدْ وَرَدَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَلَّمَ بَعْضَ بَنَاتِهِ: "مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ" رواه أَبُو دَاوُدَ فِي السُّنَنِ ثُمَّ تَوَاتَرَ وَاسْتَفَاضَ بَيْنَ أَفْرَادِ الْأُمَّةِ.

وَرَوَى الْبَيْهَقِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ سَيِّدِنَا عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: "إِنَّ أَحَدَكُمْ لَنْ يَخْلُصَ الْإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ حَتَّى يَسْتَيْقِنَ يَقِينًا غَيْرَ شَكٍّ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ، وَيُقَرَّرَ بِالْقَدَرِ كُلِّهِ". أَيْ لَا يَجُوزُ أَنْ يُؤْمِنَ بِبَعْضِ الْقَدَرِ وَيَكْفُرَ بِبَعْضٍ.

وَرَوَى أَيْضًا بِإِسْنَادِ الصَّحِيحِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَانَ بِالْحَاجِيَةِ - وَهِيَ أَرْضٌ مِنَ الشَّامِ - فَقَامَ خَطِيبًا فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: "مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ"، وَكَانَ عِنْدَهُ كَافِرٌ مِنْ كَفَّارِ الْعَجَمِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ فَقَالَ بُلْغَيْتِهِ: "إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِلُّ أَحَدًا"، فَقَالَ عُمَرُ لِلتَّرْجُمَانِ: "مَاذَا يَقُولُ؟" قَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِلُّ أَحَدًا، فَقَالَ عُمَرُ: "كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ وَلَوْلَا أَنْتَ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ لَضَرَبْتُ عَنْقَكَ هُوَ أَضْلَكَ وَهُوَ يُدْخِلُكَ النَّارَ إِنْ شَاءَ"^(١). وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو نُعَيْمٍ عَنْ ابْنِ أَحْيَى الزُّهْرِيِّ عَنْ عَمِّهِ الزُّهْرِيِّ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَانَ يَحِبُّ قَصِيدَةَ لَبِيدِ بْنِ رَبِيعَةَ الَّتِي مِنْهَا هَذِهِ الْأَبْيَاتُ، وَهِيَ:

إِنَّ تَقْوَى رَبَّنَا خَيْرٌ نَفْلٌ وَبِإِذْنِ اللَّهِ رَبِّي وَعَجَلٌ
أَحْمَدُ اللَّهِ فَلَا نِدَّ لَهُ بِيَدِيهِ الْخَيْرُ مَا شَاءَ فَعَلُ
مِنْ هِدَاةٍ سَبَلِ الْخَيْرِ اهْتَدَى نَاعِمَ الْبَالِ وَمَنْ شَاءَ أَضَلُ

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: "إِنَّ تَقْوَى رَبَّنَا خَيْرٌ نَفْلٌ"، أَيُ خَيْرٌ مَا يُعْطَاهُ الْإِنْسَانُ. وَمَعْنَى قَوْلِهِ: "وَبِإِذْنِ اللَّهِ رَبِّي وَعَجَلٌ"، أَيُ أَنَّهُ لَا يُعْطَى مُبْطِئٌ وَلَا يُسْرَعُ مُسْرِعٌ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَبِإِذْنِهِ.

وَقَوْلِهِ: "أَحْمَدُ اللَّهِ فَلَا نِدَّ لَهُ"، أَيُ لَا مِثْلَ لَهُ.

وَقَوْلِهِ: "بِيَدِيهِ الْخَيْرُ"، أَيُ وَالشَّرُّ.

وَأَمَّا اقْتَصَرَّ عَلَى ذِكْرِ الْخَيْرِ مِنْ بَابِ الْاِكْتِفَاءِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَرَّيْلَ تَقِيكُمْ أَلْحَرَ﴾

[سورة النحل،] أَيُ وَالْبَرْدَ لِأَنَّ السَّرَّيْلَ تَقِي مِنَ الْأَمْرَيْنِ لَيْسَ مِنَ الْحَرِّ فَقَطْ.

وَقَوْلِهِ: "مَا شَاءَ فَعَلُ"، أَيُ مَا أَرَادَ اللَّهُ حُصُولَهُ لَا بُدَّ أَنْ يَحْصُلَ وَمَا أَرَادَ أَنْ لَا يَحْصُلَ فَلَا يَحْصُلُ.

(١) أَيُ إِنْ شَاءَ أَنْ تَمُوتَ عَلَى كُفْرِكَ هَذَا لَا بَدَّ مِنْ دُخُولِكَ النَّارِ.

وقوله: "من هداه سُبُلَ الْخَيْرِ اهْتَدَى"، أي من شاء الله له أن يكون على الصِّراطِ الصَّحِيحِ الْمُسْتَقِيمِ اهْتَدَى.

وقوله: "نَاعِمَ الْبَالِ"، أي مُطْمَئِنِّ الْبَالِ.

وقوله: "وَمَنْ شَاءَ أَضَلَّ"، أي مَنْ شَاءَ له أن يكون ضالًّا أَضَلَّهُ.

وروى البيهقي عن الشافعي أَنَّهُ قَالَ حِينَ سُئِلَ عَنِ الْقَدَرِ:

مَا شِئْتَ كَانَ وَإِنْ لَمْ أَشَأْ وَمَا شِئْتُ إِنْ لَمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ
خَلَقْتَ الْعِبَادَ عَلَى مَا عَلِمْتَ فِي الْعِلْمِ يَجْرِي الْفَتَى وَالْمُسْنِ
عَلَى ذَا مَنَنْتَ وَهَذَا خَذَلْتَ وَهَذَا أَعْنَتَ وَذَا لَمْ تَعْنِ
فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَمِنْهُمْ سَعِيدٌ وَهَذَا قَبِيحٌ وَهَذَا حَسَنٌ

فتبيّن بهذا أَنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (سورة النحل) يعودُ إِلَى اللَّهِ لَا إِلَى الْعَبْدِ كَمَا زَعَمَتِ الْقَدَرِيَّةُ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى إِنْخِبَارًا عَنْ سَيِّدِنَا مُوسَى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فَنَنْكَرُ نَضَلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَنَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ (سورة الأعراف).

وَكَذَلِكَ قَالَتْ طَائِفَةٌ يَنْتَسِبُونَ إِلَى أَمِينِ شَيْخُو الَّذِينَ زَعَمُوهُمُ الْيَوْمَ عَبْدُ الْهَادِي الْبَانِي الَّذِي هُوَ بِدَمْشَقٍ فَقَدْ جَعَلُوا مَشِيئَةَ اللَّهِ تَابِعَةً لِمَشِيئَةِ الْعَبْدِ حَيْثُ إِنَّ مَعْنَى الْآيَةِ عِنْدَهُمْ إِنْ شَاءَ الْعَبْدُ الْإِهْتِدَاءُ شَاءَ اللَّهُ لَهُ الْهُدَى وَإِنْ شَاءَ الْعَبْدُ أَنْ يَضِلَّ أَضَلَّهُ اللَّهُ، فَكَذَّبُوا بِالْآيَةِ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ (سورة التكاوير). فَإِنْ حَاوَلَ بَعْضُهُمْ أَنْ يَسْتَدِلَّ بِآيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ لُضِدِّ هَذَا الْمَعْنَى قِيلَ لَهُ: الْقُرْآنُ يَتَّصَادَقُ وَلَا يَتَنَاقِضُ فَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ نَقِيضَ آيَةٍ وَلَيْسَ هَذَا مِنْ بَابِ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ، لِأَنَّ النَّسْخَ لَا يَدْخُلُ الْعَقَائِدَ وَلَيْسَ مُوَجِّبًا لِلتَّنَاقُضِ فَالْنَّاسِخُ لَا يَدْخُلُ فِي الْأَخْبَارِ إِنَّمَا هُوَ فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ. إِنَّمَا النَّسْخُ بَيَانُ انْتِهَاءِ حُكْمِ آيَةٍ سَابِقَةٍ بِحُكْمِ آيَةٍ لَاحِقَةٍ، عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْفِتْنَةَ لَا تُؤْمِنُ بِالنَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ.

وَمِنْ عِبَادِهِمُ الْعَجِيبَةُ أَنَّهُمْ يُفَسِّرُونَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ ﴿٣١﴾ [سورة البقرة] بِأَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى، فَإِنْ قِيلَ لَهُمْ: لَوْ كَانَتْ الْأَسْمَاءُ هِيَ أَسْمَاءُ اللَّهِ الْحُسْنَى لَمْ يَقُلِ اللَّهُ: ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ ﴿٣٢﴾ [سورة البقرة] بَلْ لَقَالَ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِي انْقَطَعُوا، لَكِنَّهُمْ يُصِرُّونَ عَلَى جَهْلِهِمْ وَتَحْرِيفِهِمْ لِلْقُرْآنِ.

وَرَوَى الْحَاكِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ عَلِيَّ الرَّضَى بْنِ مُوسَى الْكَاطِمِ كَانَ يَقْعُدُ فِي الرَّوْضَةِ وَهُوَ شَابٌّ مُلْتَحِفٌ بِمِطْرَفٍ خَزَّ فَيَسْأَلُهُ النَّاسُ وَمَشَايِخُ الْعُلَمَاءِ فِي الْمَسْجِدِ، فُسئِلَ عَنِ الْقَدْرِ فَقَالَ: قَالَ اللَّهُ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ﴾ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ [سورة القمر].

ثُمَّ قَالَ الرَّضَى: كَانَ أَبِي يَذْكُرُ عَنْ آبَائِهِ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ كَانَ يَقُولُ: "إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى الْعَجَزَ وَالْكَيْسَ وَالْيَهَّ الْمَشِيئَةَ وَبِهِ الْحَوْلُ وَالْقُوَّةُ" اهـ.

فَالْعِبَادُ مُنْسَافُونَ إِلَى فِعْلِ مَا يَصْدُرُ عَنْهُمْ بِاخْتِيَارِهِمْ لَا بِالْإِكْرَاهِ وَالْجَبْرِ كَالرِّيشَةِ الْمعلقة تَمِيلُهَا الرِّيحُ يَمْنَةً وَيسرَةً كَمَا تَقُولُ الْجَبْرِيَّةُ.

وَلَوْ لَمْ يَشَأِ اللَّهُ عِصْيَانَ الْعُصَاةِ وَكُفْرَ الْكَافِرِينَ وَإِيمَانَ الْمُؤْمِنِينَ وَطَاعَةَ الطَّائِعِينَ لَمَا خَلَقَ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ.

وَمَنْ يَنْسُبُ لِلَّهِ تَعَالَى خَلْقَ الْخَيْرِ دُونَ الشَّرِّ فَقَدْ نَسَبَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الْعَجَزَ وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَكَانَ لِلْعَالَمِ مُدَبِّرَانِ، مُدَبِّرُ خَيْرٍ وَمُدَبِّرُ شَرٍّ وَهَذَا كُفْرٌ وَإِشْرَاكٌ.

وَهَذَا الرَّأْيُ السَّفِيهُ مِنْ جِهَةِ أُخْرَى يَجْعَلُ اللَّهُ تَعَالَى فِي مُلْكِهِ مَعْلُوبًا، لِأَنَّهُ عَلَى حَسَبِ اعْتِقَادِهِ اللَّهُ تَعَالَى أَرَادَ الْخَيْرَ فَقَطَّ فَيَكُونُ قَدْ وَقَعَ الشَّرُّ مِنْ عَدُوِّهِ إِبْلِيسَ وَأَعْوَانِهِ الْكُفَّارِ رَغْمَ إِرَادَتِهِ.

وَيَكْفُرُ مَنْ يَعْتَقِدُ هَذَا الرَّأْيَ لِمَخَالَفَتِهِ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [سورة يوسف] أَي لَا أَحَدَ يَمْنَعُ نَفَادَ مَشِيئَتِهِ.

وَحُكْمُ مَنْ يَنْسُبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الْخَيْرَ وَيَنْسُبُ إِلَى الْعَبْدِ الشَّرَّ أَدْبًا أَنَّهُ لَا حَرَجَ عَلَيْهِ، أَمَّا إِذَا اعْتَقَدَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَيْرَ دُونَ الشَّرِّ فَحُكْمُهُ التَّكْفِيرُ.

وَاعْلَمُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا عَذَّبَ الْعَاصِيَ فَبَعْدَ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ ظُلْمٍ، وَإِذَا أَثَابَ الْمُطِيعَ فَبَفَضْلِهِ مِنْ غَيْرِ جُودٍ عَلَيْهِ، لِأَنَّ الظُّلْمَ إِنَّمَا يُتَصَوَّرُ مِمَّنْ لَهُ أَمْرٌ وَنَاهٍ وَلَا أَمْرَ لِلَّهِ وَلَا نَاهِي لَهُ، فَهُوَ يَتَصَرَّفُ فِي مُلْكِهِ كَمَا يَشَاءُ لِأَنَّهُ خَالِقُ الْأَشْيَاءِ وَمَالِكُهَا، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ وَالْإِمَامُ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ وَابْنُ حَبَانَ عَنْ ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ قَالَ: "أَتَيْتُ أَبِيَّ بْنَ كَعْبٍ فَقُلْتُ: يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، إِنَّهُ حَدَّثَ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْقَدَرِ فَحَدَّثَنِي لَعَلَّ اللَّهَ يَنْفَعُنِي، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَوْ عَذَّبَ أَهْلَ أَرْضِهِ وَسَمَوَاتِهِ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أَحَدٍ ذَهَبًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَمَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ وَلَوْ مِتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا دَخَلْتَ النَّارَ»، قَالَ: "ثُمَّ أَتَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ فَحَدَّثَنِي مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ أَتَيْتُ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ فَحَدَّثَنِي مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ أَتَيْتُ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ فَحَدَّثَنِي مِثْلَ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ".

وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ وَابْنُ أَبِي حَتْمٍ فِي كِتَابِ الْقَدَرِ عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ الدَّؤْلِيِّ قَالَ: "قَالَ لِي عِمْرَانُ بْنُ الْحُصَيْنِ: أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ وَيَكْدَحُونَ فِيهِ أَشْيَاءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ مِنْ قَدَرٍ قَدْ سَبَقَ أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ وَتَبَتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ؟ فَقُلْتُ: بَلَى شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ، قَالَ فَقَالَ: أَفَلَا يَكُونُ ظُلْمًا، قَالَ: فَفَزَعْتُ مِنْ ذَلِكَ فَزَعًا شَدِيدًا وَقُلْتُ: كُلُّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَمَلَكَ يَدِهِ لَا يُسْتَلَّ عَمَّا

يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ، قَالَ: فَقَالَ لِي: يَرْحَمَكَ اللَّهُ إِنِّي لَمْ أَرِدْ بِمَا سَأَلْتُكَ إِلَّا لِأَخْزَرَ عَقْلَكَ، إِنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ مُزَيْنَةَ أَتَيَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ وَيَكْدَحُونَ فِيهِ أَشْيَاءُ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ مِنْ قَدَرٍ قَدْ سَبَقَ أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ وَثَبَّتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ؟ فَقَالَ: «بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ»، وَمُصَدِّقُ ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ﴾ [سورة الشمس] ٨.

وصَحَّ حديثُ: «فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلِيَحْمَدِ اللَّهُ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يُلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ» رواه مسلمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. أَمَّا الْأَوَّلُ: وَهُوَ مَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلَا تَنَّى اللَّهُ تَعَالَى مُتَفَضِّلٌ عَلَيْهِ بِالْإِجَادِ وَالتَّوْفِيقِ مِنْ غَيْرِ وَجُوبٍ عَلَيْهِ، فَلِيَحْمَدِ الْعَبْدُ رَبَّهُ عَلَى تَفَضُّلِهِ عَلَيْهِ.

أَمَّا الثَّانِي: وَهُوَ مَنْ وَجَدَ شَرًّا فَلَا تَنَّى تَعَالَى أُبْرَزَ بِقَدَرَتِهِ مَا كَانَ مِنْ مِيلِ الْعَبْدِ السَّيِّئِ فَمَنْ أَضْلَلَهُ اللَّهُ فَبَعْدِلِهِ وَمَنْ هَدَاهُ فَبِفَضْلِهِ.

وَلَوْ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ وَأَدْخَلَ فَرِيقًا الْجَنَّةَ وَفَرِيقًا النَّارَ لَسَابِقَ عِلْمِهِ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ لَكَانَ شَأْنُ الْمَعَذَّبِ مِنْهُمْ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِّن قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [سورة طه] ١٣٤.

فَأَرْسَلَ اللَّهُ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِيُظْهِرَ مَا فِي اسْتِعْدَادِ الْعَبْدِ مِنَ الطُّوعِ وَالْإِبَاءِ فَيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ.

فَأَخْبَرَنَا أَنَّ قِسْمًا مِنْ خَلْقِهِ مَصِيرُهُمُ النَّارُ بِأَعْمَالِهِمُ الَّتِي يَعْمَلُونَ بِاخْتِيَارِهِمْ، وَكَانَ تَعَالَى عَالِمًا بِعِلْمِهِ الْأَرْثِيِّ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة السجدة] ١٣ أَخْبَرَ اللَّهُ

تعالى في هذه الآية أنه قال في الأزل: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة السجدة] وقوله صدق لا يتخلف لأن التخلّف أي التغيّر كذب والكذب محال على الله.

قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة الأنعام] أي ولكنه لم يشأ هداية جميعكم إذ لم يسبق العلم بذلك. فالعباد منساقون إلى فعل ما يصدّر عنهم باختيارهم لا بالإكراه والجبر.

واعلم أنّ ما ذكرناه من أمر القدر ليس من الخوض الذي نهى النبي ﷺ عنه بقوله: «إِذَا ذُكِرَ الْقَدَرُ فَأَمْسِكُوا» رواه الطبراني، لأنّ هذا تفسيرٌ للقدر الذي ورد به النص، وأمّا المنهي عنه فهو الخوض فيه للوصول إلى سرّه^(١)، فقد روى الشافعي والحافظ ابن عساكر عن علي رضي الله عنه أنّه قال للسائل عن القدر: "سرّ الله فلا تتكلّف"، فلمّا ألح عليه قال له: "أمّا إذ أبيت فإنه أمر بين أمرين لا جبر ولا تفويض".

واعلم أيضاً أنّ رسول الله ﷺ قد ذم القدرية وهم فرق، فمنهم من يقول: العبد خالق لجميع فعله الاختياري، ومنهم من يقول هو خالق الشرّ دون الخير وكلا الفريقين كفار، قال رسول الله ﷺ: «القدرية مجوس هذه الأمة» وفي رواية لهذا الحديث: «لكل أمة مجوس، ومجوس هذه الأمة الذين يقولون لا قدر» رواه أبو داود عن حذيفة عن النبي ﷺ.

وفي كتاب "القدر" للبيهقي وكتاب "تهذيب الآثار" للإمام ابن جرير الطبري رحمهما الله تعالى عن عبد الله بن عمر أنّ رسول الله ﷺ قال: «صنفان من أمتي ليس لهما نصيب في الإسلام القدرية والمرجئة»^(٢).

(١) أي إلى معرفة حقيقته.

(٢) المرجئة هم طائفة اتسبوا للإسلام كانوا يعتقدون أن العبد المؤمن مهما عمل من الكبائر ومات بلا توبة ليس عليه عذاب.

فالمعتزلة هم القدرية لأنهم جعلوا الله والعبد سواسية بنفي القدرة عنه عز وجل على ما يُقدَّر عليه عبده، فكأنهم يُثبتون خالقين في الحقيقة كما أثبت الجوس خالقين خالقاً للخير هو عندهم النور وخالقاً للشر هو عندهم الظلام. والهداية على وجهين:

أحدهما: إبانة الحق والدعاء إليه، ونصب الأدلة عليه، وعلى هذا الوجه يصح إضافة الهداية إلى الرسل وإلى كل داع لله.

كقوله تعالى في رسوله محمد ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [سورة الشورى].

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [سورة فصلت].

والثاني: من جهة هداية الله تعالى لعباده، أي خلق الاهتداء في قلوبهم كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [سورة الأنعام].

والإضلال خلق الضلال في قلوب أهل الضلال.

فالعباد مشيئةهم تابعة لمشيئة الله قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [سورة الإنسان].

وهذه الآية من أوضح الأدلة على ضلال جماعة أمين شيخو لأنهم يقولون إن شاء العبد الهداية يهديه الله وإن شاء العبد الضلال يضلّه الله، فماذا يقولون في هذه الآية: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [سورة الأنعام] فإنها صريحة في سبق مشيئة الله على مشيئة العبد لأن الله نسب المشيئة إليه وما ردها إلى العباد. فأولئك كأنهم قالوا من يُرد العبد أن يشرح صدره للإسلام يشرح الله صدره، ثم قوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ﴾ [سورة الأنعام] فلا يمكن أن يرجع الضمير في يُرد أن يضلّه إلى العبد

لأن هذا يجعلُ القراءَ ركيكًا ضعيفَ العبارةِ والقراءُ أعلى البلاغةِ لا يوجدُ فوقه بلاغةً، فبانَ بذلكَ جهلُهم العميقُ وغباوتُهم الشديدة. وعلى موجبِ كلامهم يكونُ معنى الآية ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [سورة الأنعام] أن العبدَ الذي يريدُ أن يهديه الله يشرحُ الله صدره للهدى وهذا عكسُ اللفظِ الذي أنزله الله وهكذا كانَ اللازمُ على موجبِ اعتقادهم أن يقولَ الله والعبدُ الذي يريدُ أن يضلّه الله يجعلَ صدره ضيقًا حرجًا، وهذا تحريفٌ للقراءِ لإخراجِهِ عن أساليبِ اللغةِ العربيةِ التي نزلَ بها القراءُ وفهمَ الصحابةُ القراءَ على موجبِها، والدليلُ على أنهم يفهمونَ القراءَ على خلافِ ما تفهمه هذه الفرقةُ اتفاقُ المسلمينَ سلفُهم وخلفُهم على قولهم: ما شاء الله كانَ وما لم يشأ لم يكن.

تَقْدِيرُ اللَّهِ لَا يَتَغَيَّرُ

اعْلَمْ أَنَّ تَقْدِيرَ اللَّهِ تَعَالَى الْأَزَلِّيَّ لَا يَغْيَرُهُ شَيْءٌ لَا دَعْوَةٌ دَاعٍ وَلَا صَدَقَةٌ مُتَصَدِّقٍ وَلَا صَلَاةٌ مُصَلٍّ وَلَا غَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْحَسَنَاتِ بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الْخَلْقُ عَلَى مَا قَدَّرَ لَهُمْ فِي الْأَزَلِّ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَغَيَّرَ ذَلِكَ. وَأَمَّا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [سورة الرعد] فَلَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّ الْخَوْ وَالْإِثْبَاتَ فِي تَقْدِيرِ اللَّهِ، بَلِ الْمَعْنَى فِي هَذَا أَنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ قَدْ كَتَبَ مَا يُصِيبُ الْعَبْدَ مِنْ عِبَادِهِ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْحَرَمَانِ وَالْمَوْتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَأَنَّهُ إِنْ دَعَا اللَّهُ تَعَالَى أَوْ أَطَاعَهُ فِي صَلَاةِ الرَّحْمِ وَغَيْرِهَا لَمْ يُصِبهُ ذَلِكَ الْبَلَاءُ وَرَزَقَهُ كَثِيرًا أَوْ عَمَّرَهُ طَوِيلًا، وَكَتَبَ فِي أُمِّ الْكِتَابِ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ الْأُمْرَيْنِ، فَالْخَوْ وَالْإِثْبَاتُ رَاجِعٌ إِلَى أَحَدِ الْكِتَابَيْنِ كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ، فَقَدْ رَوَى الْبَيْهَقِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [سورة الرعد]

[سورة الرعد] قال: يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ مِنْ أَحَدِ الْكِتَابِينَ، هُمَا كِتَابَانِ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ مِنْ أَحَدِهِمَا وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ. ا.هـ.

وَالْحُوَّ يَكُونُ فِي غَيْرِ الشَّقَاوَةِ وَالسَّعَادَةِ. فَقَدْ رَوَى الْبَيْهَقِيُّ أَيْضًا عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهُ قَالَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [سورة الدخان]: "يُفَرَّقُ فِي لَيْلَةِ الْقَدَرِ مَا يَكُونُ فِي السَّنَةِ مِنْ رِزْقٍ أَوْ مُصِيبَةٍ، فَأَمَّا كِتَابُ الشَّقَاءِ وَالسَّعَادَةِ فَإِنَّهُ ثَابِتٌ لَا يُغَيَّرُ". اهـ.

فَلِذَلِكَ لَا يَصِحُّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الدُّعَاءُ الَّذِي فِيهِ: "إِنْ كُنْتَ كَتَبْتَنِي فِي أُمِّ الْكِتَابِ عِنْدَكَ شَقِيًّا فَاْمُحْ عَنِّي اسْمَ الشَّقَاءِ وَأَثْبِتْنِي عِنْدَكَ سَعِيدًا، وَإِنْ كُنْتَ كَتَبْتَنِي فِي أُمِّ الْكِتَابِ مُحْرُومًا مُقْتَرًّا عَلَيَّ رِزْقِي فَاْمُحْ عَنِّي حِرْمَانِي وَتَقْتِرَ رِزْقِي وَأَثْبِتْنِي عِنْدَكَ سَعِيدًا مُوَفَّقًا لِلْخَيْرِ، فَإِنَّكَ تَقُولُ فِي كِتَابِكَ: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [سورة الرعد] وَلَا مَا أَشْبَهَهُ. وَلَمْ يَصِحَّ هَذَا الدُّعَاءُ أَيْضًا عَنْ عُمَرَ وَلَا عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ وَلَا عَنْ غَيْرِهِمَا مِنَ السَّلَفِ كَمَا يُعْلَمُ ذَلِكَ مِنْ كِتَابِ "الْقَدَرِ" لِلْبَيْهَقِيِّ.

تَقْسِيمُ الْأُمُورِ إِلَى أَرْبَعَةٍ

الأُمُورُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ:

الْأَوَّلُ: شَيْءٌ شَاءَهُ اللَّهُ وَأَمَرَ بِهِ: وَهُوَ إِيْمَانُ الْمُؤْمِنِينَ وَطَاعَةُ الطَّائِعِينَ.

وَالثَّانِي: شَيْءٌ شَاءَهُ اللَّهُ وَلَمْ يَأْمُرْ بِهِ: وَهُوَ عِصْيَانُ الْعِصَاةِ وَكُفْرُ الْكَافِرِينَ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكُفْرَ مَعَ أَنَّهُ خَلَقَهُ بِمَشِئَتِهِ وَلَا يَرْضَاهُ لِعِبَادِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [سورة الزمر].

الثَّالِثُ: أَمْرٌ لَمْ يَشَأْهُ اللَّهُ وَأَمَرَ بِهِ: وَهُوَ الْإِيْمَانُ بِالنِّسْبَةِ لِلْكَافِرِينَ الَّذِينَ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُمْ يَمُوتُونَ عَلَى الْكُفْرِ أَمَرُوا بِالْإِيْمَانِ وَلَمْ يَشَأْهُ لَهُمْ.

الرَّابِعُ: أَمْرٌ لَمْ يَشَأْهُ وَلَمْ يَأْمُرْ بِهِ: وَهُوَ الْكُفْرُ بِالنَّسْبَةِ لِلْأَنْبِيَاءِ وَالْمَلَائِكَةِ.
وَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فَلْيَقِفْ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ
يَسْأَلُونَ﴾ (سورة الأنبياء).

فَلَا يُقَالُ كَيْفَ يَعَذِّبُ الْعَصَاةَ عَلَى مَعَاصِيهِمْ الَّتِي شَاءَ وَقُوعَهَا مِنْهُمْ فِي الْآخِرَةِ.

تَوْحِيدُ اللَّهِ فِي الْفِعْلِ

رُويَ عَنِ الْجُنَيْدِ إِمَامِ الصُّوفِيَّةِ الْعَارِفِينَ عِنْدَمَا سُئِلَ عَنِ التَّوْحِيدِ أَنَّهُ قَالَ: "الْيَقِينُ" ثُمَّ
اسْتَفْسِرَ عَنْ مَعْنَاهُ فَقَالَ: "إِنَّهُ لَا مُكُونَ لَشَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ مِنَ الْأَعْيَانِ وَالْأَعْمَالِ خَالِقٌ
لَهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى"، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (سورة الصافات).

وَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ صَانِعُ كُلِّ صَانِعٍ وَصَنَعَتِهِ»، رواه الحاكم والبيهقي وابن
حِبَّانَ مِنْ حَدِيثٍ خُذِيفَةٍ.

إِذِ الْعِبَادُ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَإِنَّمَا يَكْتَسِبُونَهَا، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ
شَيْءٍ﴾ (سورة الرعد) ﴿١٦﴾ تَمَدَّحَ تَعَالَى بِذَلِكَ لِأَنَّهُ شَيْءٌ يَخْتَصُّ بِهِ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي الْعُمُومَ
وَالشُّمُولَ لِلْأَعْيَانِ وَالْأَعْمَالِ وَالْحَرَكَاتِ وَالسَّكَنَاتِ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة الأنعام) ﴿١١٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ
وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١١٣﴾ (سورة الأنعام).

سَأَقِ اللَّهَ الصَّلَاةَ وَالنُّسُكَ وَالْحَيَاةَ وَالْمَمَاتَ فِي مَسَاقٍ وَاحِدٍ وَجَعَلَهَا مِلْكَاً لَهُ. فَكَمَا أَنَّ
اللَّهَ خَالِقُ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ كَذَلِكَ اللَّهُ خَالِقُ الْأَعْمَالِ الْإِخْتِيَارِيَّةِ كَالصَّلَاةِ وَالنُّسُكِ،
وَالْحَرَكَاتِ الْإِضْطِرَارِيَّةِ مِنْ بَابِ الْأَوَّلَى.

وَإِنَّمَا تَمْتَازُ الْأَعْمَالُ الْإِخْتِيَارِيَّةُ أَيُّ الَّتِي لَنَا فِيهَا مِيلٌ بِكُونِهَا مَكْتَسَبَةً لَنَا فَهِيَ مَحَلُّ
التَّكْلِيفِ.

والكَسْبُ الذي هو فِعْلُ العبدِ وعليه يُثَابُ أو يُؤَاخَذُ في الآخرة هو تَوْجِيهُ العبدِ قَصْدَهُ وإِرَادَتَهُ نحوَ العملِ أي يَصْرِفُ إليه قَدْرَتَهُ فَيَخْلُقُهُ اللهُ عِنْدَ ذَلِكَ.

فَالْعَبْدُ كَاسِبٌ لِعَمَلِهِ وَاللهُ تَعَالَى خَالِقُ لِعَمَلِ هذا العبدِ الذي هو كَسْبٌ له، وهو من أَعْمَضِ المسائلِ في هذا العِلْمِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ ﴿٢٨٦﴾ [سورة البقرة].

فَلَيْسَ الْإِنْسَانُ مُجْبُورًا لِأَنَّ الْجَبَرَ يُنَافِي التَّكْلِيفَ، وَهَذَا هُوَ الْمَذْهَبُ الْحَقُّ وَهُوَ خَارِجٌ عَنِ الْجَبْرِ وَالْقَدَرِ أَيِ مَذْهَبِ الْجَبَرِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ.

وَيَكْفُرُ مَنْ يَقُولُ إِنَّ الْعَبْدَ يَخْلُقُ أَعْمَالَهُ كَالْمُعْتَزَلَةِ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "كَلَامُ الْقَدَرِيَّةِ كُفْرٌ" وَالْقَدَرِيَّةُ هُمُ الْمُعْتَزَلَةُ.

قَالَ أَبُو يُوسُفَ: "الْمُعْتَزَلَةُ زَنَادِقَةٌ".

وَوَصَفَهُم أَبُو مَنْصُورٍ التَّمِيمِيُّ فِي كِتَابِهِ "الْفَرْقُ بَيْنَ الْفِرْقِ": بِأَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ. وَأَبُو مَنْصُورٍ هُوَ الَّذِي قَالَ فِيهِ ابْنُ حَجَرٍ الْهَيْتَمِيُّ هَذِهِ الْعِبَارَةُ: "وَقَالَ الْإِمَامُ الْكَبِيرُ إِمَامُ أَصْحَابِنَا أَبُو مَنْصُورٍ الْبَغْدَادِيُّ"، وَهُوَ مِمَّنْ كَتَبَ عَنْهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي الْحَدِيثِ.

وَلَا تَعْتَرَّ بِعَدَمِ تَكْفِيرِ بَعْضِ الْمُتَأَخِّرِينَ لَهُمْ، فَقَدْ نَقَلَ الْأُسْتَاذُ أَبُو مَنْصُورٍ التَّمِيمِيُّ فِي كِتَابِهِ "أُصُولُ الدِّينِ" وَكَذَلِكَ فِي كِتَابِهِ "تَفْسِيرُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ" تَكْفِيرَهُمْ عَنِ الْأُثْمَةِ.

قَالَ الْإِمَامُ الْبَغْدَادِيُّ فِي كِتَابِهِ "تَفْسِيرُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ": "أَصْحَابُنَا أَجْمَعُوا عَلَى تَكْفِيرِ الْمُعْتَزَلَةِ" أَيِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: الْعَبْدُ يَخْلُقُ أَعْمَالَهُ الْإِخْتِيَارِيَّةَ، وَكَذَلِكَ الَّذِينَ يَقُولُونَ فَرَضَ عَلَى اللهِ أَنْ يَفْعَلَ مَا هُوَ الْأَصْلَحُ لِلْعِبَادِ.

وَقَوْلُهُ: "أَصْحَابُنَا" يَعْنِي بِهِ الْأَشْعَرِيَّةَ وَالشَّافِعِيَّةَ لِأَنَّهُ أَشْعَرِيٌّ شَافِعِيٌّ بَلْ هُوَ رَأْسُ كَبِيرٍ فِي الشَّافِعِيَّةِ كَمَا قَالَ ابْنُ حَجَرٍ وَهُوَ إِمَامٌ مُقَدَّمٌ فِي النَّقْلِ مَعْرُوفٌ بِذَلِكَ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ

والأصوليين والمؤرخين الذين ألقوا في الفرق، فمن أراد مزيد التأكد فليطالع كتبه هذه، فلا يدافع نقله بكلام الباجوري وأمثاله ممن هو من قبل عصره أو بعده. وأما كلام بعض المتقدمين من ترك تكفيرهم فمحمول على مثل بشر المريسي والمأمون العباسي، فإن بشرًا كان موافقهم في القول بخلق القرآن وكفرهم في القول بخلق الأفعال فلا يُحكم على جميع من انتسب إلى الاعتزال بحكم واحد ويُحكم على كل فرد منهم بكونه ضالا.

الدليل العقلي

على فساد قول المعتزلة بأن العبد يخلق أفعاله

قال أهل الحق: "امتنع خلق العبد لفعله لعموم قدرة الله تعالى وإرادته وعلمه". وبيان الدليل على ذلك أن قدرة الله عامة وعلمه عام وإرادته عامة فإن نسبتها إلى الممكنات نسبة واحدة.

فإن وجود الممكن العقلي إنما احتاج إلى القادر من حيث إمكانه وحدوثه. فلو تَخَصَّصَتْ صِفَاتُهُ هَذِهِ بِبَعْضِ الْمَمْكِنَاتِ لِلزِّمِ اتِّصَافُهُ تَعَالَى بِنَقِيضِ تِلْكَ الصِّفَاتِ مِنَ الْجَهْلِ وَالْعَجْزِ وَذَلِكَ نَقْصٌ وَالنَّقْصُ عَلَيْهِ مُحَالٌ. لَا قِتْضَى تَخَصُّصُهَا مُحْصَصًا وَتَعَلَّقَ الْمُخَصَّصُ بِذَاتِ الْوَاجِبِ الْوُجُودِ وَصِفَاتِهِ وَذَلِكَ مُحَالٌ. فَإِذَا ثَبَتَ عُمُومُ صِفَاتِهِ. فَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى إِيجَادَ حَادِثٍ وَأَرَادَ الْعَبْدُ خِلَافَهُ وَنَفَذَ مُرَادَ الْعَبْدِ دُونَ مُرَادِ اللَّهِ لِلزِّمِ الْحَالِ الْمَفْرُوضِ فِي إِثْبَاتِ إِهْيَيْنِ، وَتَعَدُّدِ الْإِلَهِ مُحَالٌ بِالْبُرْهَانِ، فَمَا أَدَّى إِلَى الْحَالِ مُحَالٍ.

إثبات أن الأسباب العادية لا تؤثر على الحقيقة وإنما المؤثر الحقيقي هو الله

ذكر الحاكم صاحب المستدرک في تاریخ نيسابور قال: سمعت أبا زكريا يحيى بن محمد العنبري يقول: سمعت أبا العباس بن محمد بن عيسى الطهماني المروزي يقول: إن الله تبارك وتعالى يظهر ما شاء إذا شاء من الآيات والعبر في برئته. فيزيد الإسلام بها عزاً وقوةً ويؤيد ما أنزل من الهدى والبيّنات وينشر أعلام النبوة ويوضح دلالة الرسالة ويوثق عرى الإسلام. ويثبت حقائق الإيمان منّا منه^(١) على أوليائه وزيادة في البرهان بهم وحجة على من عاند في طاعته^(٢) وألحد في دينه^(٣) ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة^(٤) فله الحمد لا إله إلا هو ذو الحجة البالغة^(٥) والعزّ القاهر^(٦). والطول الباهر^(٧). وصلى الله على سيدنا محمد نبي الرحمة ورسول الهدى وعليه وعلى آله الطاهرين السّلام ورحمة الله وبركاته.

وإنّ ممّا أدركنا عياناً وشاهدناه في زماننا وأحطنا علماً به^(٨) فزادنا يقيناً في ديننا وتصدّقنا لما جاء به نبينا ودعا إليه من الحق فرغب فيه من الجهاد من فضيلة الشهداء^(٩) وبلغ عن الله عزّ وجلّ فيهم إذ يقول جلّ ثناؤه "﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي

(١) أي فضلاً منه.

(٢) أي حتى يكون حجة على الذين تركوا طاعته بترك الإيمان به.

(٣) أي ترك دين الله.

(٤) أي حتى يهلك المالكون عن بينة، أي بعد قيام الحجة، ويحيى من حي عن بينة، أي حتى يؤمن الذين آمنوا بالدليل، يكون صار معهم دليل بعد رؤيتهم لما أظهره الله تعالى من الآيات والعبر.

(٥) أي القوّة، معناه يستحيل عليه الظلم.

(٦) أي له عزّ قاهر، عزّ يغلب أعداءه، الله تعالى هو العزيز، معناه الذي يغلب ولا يُغلب.

(٧) أي الفضل القوي، والطول بفتح الطاء، الله تعالى ذو الطول أي ذو الفضل، والباهر معناه القوي.

(٨) أي تحقّقنا منه.

(٩) معناه يحبّ إلى الناس الشهادة في سبيل الله.

سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴿١٦٧﴾ ﴿١٦٨﴾ [سورة آل عمران]. أَيْ وَرَدَتْ فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ وَمِائَتَيْنِ مَدِينَةً مِنْ مَدَائِنِ خُورَزْمٍ تُدْعَى هَزَارَاسَبَ^(٢) وَهِيَ فِي غَرْبِي وَادِي جَيْحُونَ وَمِنْهَا إِلَى الْمَدِينَةِ الْعُظْمَى مَسَافَةٌ نِصْفِ يَوْمٍ^(٣) وَخُبِرْتُ أَنَّ بَهَا امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ الشُّهَدَاءِ رَأَتْ رُؤْيَا. كَأَنَّهَا أُطْعِمَتْ فِي مَنَامِهَا شَيْئًا فَهِيَ لَا تَأْكُلُ شَيْئًا وَلَا تَشْرَبُ مُنْذُ عَهْدِ أَبِي الْعَبَّاسِ بْنِ طَاهِرٍ وَإِلَى خُرَاسَانَ وَكَانَ تَوَفِّيَ قَبْلَ ذَلِكَ بِثَمَانِ سَنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٤) ثُمَّ مَرَرْتُ بِتِلْكَ الْمَدِينَةِ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ وَمِائَتَيْنِ^(٥) فَرَأَيْتُهَا وَحَدَّثْتَنِي بِحَدِيثِهَا فَلَمْ أَسْتَقْصِ عَلَيْهَا لِحْدَاثَةِ سِنِّي^(٦) ثُمَّ إِنِّي عُدْتُ إِلَى خُورَزْمٍ فِي آخِرِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَخَمْسِينَ وَمِائَتَيْنِ فَرَأَيْتُهَا بَاقِيَةً وَوَجَدْتُ حَدِيثَهَا شَائِعًا مُسْتَفِيضًا^(٧). وَهَذِهِ الْمَدِينَةُ عَلَى مَدْرَجَةِ الْقَوَافِلِ^(٨) وَكَانَ الْكَثِيرُ مِمَّنْ نَزَلَهَا إِذَا بَلَغَهُمْ قِصَّتُهَا أَحَبُّوا أَنْ يَنْظُرُوا إِلَيْهَا^(٩) فَلَا يَسْأَلُونَ عَنْهَا رَجُلًا وَلَا امْرَأَةً وَلَا غُلَامًا إِلَّا عَرَفَهَا وَدَلَّ عَلَيْهَا^(١٠) فَلَمَّا وَافَيْتُ النَّاحِيَةَ طَلَبْتُهَا فَوَجَدْتُهَا غَائِبَةً عَلَى عِدَّةِ فَرَسٍ فَمَضَيْتُ فِي أَثَرِهَا^(١١) مِنْ قَرْيَةٍ إِلَى قَرْيَةٍ فَأَدْرَكْتُهَا بَيْنَ قَرِيَتَيْنِ تَمْشِي مِشْيَةً قَوِيَّةً فَإِذَا هِيَ امْرَأَةٌ نَصَفُ^(١٢) جَيِّدَةُ الْقَامَةِ حَسَنَةُ الْبَدَنِ ظَاهِرَةُ الدَّمِ مُتَوَرِّدَةُ الْحَدَّيْنِ ذَكِيَّةُ الْفُؤَادِ^(١٣) فَسَايَرْتَنِي^(١٤) وَأَنَا رَاكِبٌ، فَعَرَضْتُ عَلَيْهَا مَرْكَبًا فَلَمْ

(١) المعنى أن مما يزيد بالشهادة لصحة هذه الآية التي تثبت أن الشهداء أحياء يرزقون أي يأكلون ويشربون بعد أن يقتلوا لأن أجسادهم تحيا في القبر لأن أثر الروح يعود إليها.

(٢) هزاراسب لغة فارسية. معناها ألف فرس كما في معجم البلدان.

(٣) أي بينها وبين عاصمة تلك الناحية نصف يوم.

(٤) أبو العباس بن طاهر كان حاكمًا في خراسان من قبل العباسيين. الخليفة العباسي كان حاكمًا في ذلك الزمن.

(٥) يعني بعد أربع سنوات.

(٦) يعني ما تتبعث خبرها، إنما هي حدثتني لكن أنا لم أبحث معها في أمرها.

(٧) يعني بعد أن مضى أكثر من عشر سنوات من سماع خبرها مرَّ هذا الشيخ الطُّهْمَانِيُّ فَوَجَدَ خَبَرَهَا مُسْتَفِيضًا أي ظاهراً بين الناس منتشرًا مشهورًا، أي شاع بين الناس أنَّهَا لَا تَأْكُلُ وَلَا تَشْرَبُ.

(٨) أي المسافرين يمضون بها.

(٩) أي الذين ينزلون إلى تلك البلدة ويسمعون خبرها يريدون أن يروها ويتحققوا من هذا الأمر.

(١٠) معناه أهل البلد يعرفونها، الذكور والإناث يعرفونها ويدلون عليها.

(١١) يعني لما علمت أنها مسافرة إلى مسافة عدَّة فراسخ، والفرسخ الواحد ثلاثة أميال تقريبًا أي مسافة ساعة ونصف مشيًا مضيت في أثرها.

(١٢) معناه عُمُرُهَا مُتَوَسِّطٌ أي نحو الثلاثين.

(١٣) يعني لبيبة.

(١٤) معناه سارت معي.

تَرْكَبُهُ^(١) وَأَقْبَلَتْ تَمْشِي مَعِيَ بِقُوَّةٍ^(٢). وَحَضَرَ مَجْلِسِي قَوْمٌ مِنَ التُّجَّارِ وَالذَّهَّاقِينَ وَفِيهِمْ فَقِيهٌ يُسَمَّى مُحَمَّدَ بْنَ حَمْدَوَيْهِ الْحَارِثِيِّ^(٣) وَقَدْ كَتَبَ عَنْهُ مُوسَى ابْنُ هَارُونَ الْبَزَّازُ بِمَكَّةَ^(٤) وَكَمَّلَ لَهُ عِبَادَةٌ وَرَوَايَةٌ لِلْحَدِيثِ، وَشَابُّ حَسَنٌ يُسَمَّى عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَكَانَ يُخَلِّفُ أَصْحَابَ الْمَظَالِمِ بِنَاحِيَّتِهِ^(٥) فَسَأَلْتُهُمْ عَنْهَا فَأَحْسَنُوا الثَّنَاءَ عَلَيْهَا وَقَالُوا عَنْهَا خَيْرًا وَقَالُوا إِنَّ أَمْرَهَا ظَاهِرٌ عِنْدَنَا فَلَيْسَ فِينَا مَنْ يُخْتَلَفُ فِيهَا، قَالَ الْمَسْمِيُّ عَبْدَ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ: أَنَا أَسْمَعُ حَدِيثَهَا مِنْذُ أَيَّامِ الْحَدَاثَةِ^(٦) وَنَشَأْتُ وَالنَّاسُ يَتَفَاوَضُونَ فِي خَبَرِهَا وَقَدْ فَرَّغْتُ بَالِي لَهَا وَشَعَلْتُ نَفْسِي بِالْإِسْتِقْصَاءِ عَلَيْهَا فَلَمْ أَرَ إِلَّا سِتْرًا وَعَفَافًا^(٧) وَلَمْ أَعْثُرْ لَهَا عَلَى كَذِبٍ فِي دَعْوَاهَا وَلَا حِيلَةٍ فِي التَّلْيِيسِ، وَذَكَرْتُ أَنَّ مَنْ كَانَ يَلِي خُورَارِزْمَ مِنَ الْعُمَّالِ^(٨) كَانُوا فِيهَا خَلَا يَسْتَحْضِرُونَهَا وَيَحْضُرُونَهَا الشَّهْرَ وَالشَّهْرَيْنِ وَالْأَكْثَرَ فِي بَيْتٍ يُغْلِقُونَهُ عَلَيْهَا^(٩) وَيُوكَلُونَ مِنْ يُرَاعِيهَا^(١٠) فَلَا يَرَوْنَهَا تَأْكُلُ وَلَا تَشْرَبُ، وَلَا يَجِدُونَ لَهَا أَثَرَ بَوْلٍ وَلَا غَائِطٍ فَيَبْرُؤُونَهَا^(١١) وَيَكْسُونَهَا^(١٢) وَيُخْلُونَ سَبِيلَهَا^(١٣) فَلَمَّا تَوَاطَأَ أَهْلُ النَّاحِيَةِ عَلَى تَصْدِيقِهَا اسْتَقْصَصْتُهَا عَنْ حَدِيثِهَا وَسَأَلْتُهَا عَنْ اسْمِهَا وَشَأْنِهَا كُلِّهِ، فَذَكَرْتُ أَنَّ اسْمَهَا رَحْمَةُ بِنْتُ إِبْرَاهِيمَ وَأَنَّهُ كَانَ لَهَا زَوْجٌ نَحَّارٌ فَقِيرٌ مَعِيشَتُهُ مِنْ عَمَلٍ يَدِهِ، يَأْتِيهِ رِزْقُهُ

(١) معناه هو راكب وهي ماشية، فعرض عليها مركبًا أي دابةً تركبها فلم تقبل.

(٢) أي مشيتها كان مشية إنسان قوي.

(٣) أي كان في هذا المجلس عالم اسمه محمد بن حمدويه.

(٤) موسى بن هارون كان أخذ عن هذا الفقيه علم الحديث، معناه أنه كان من علماء علم الحديث.

(٥) أي أنه كان موطئًا يخلف أصحاب الشكاوى.

(٦) أي منذ الصغر.

(٧) أي ما رأيته منها إلا شيئًا حسنًا.

(٨) أي الحكام.

(٩) يعني يحبسونها في مكان الشهر والشهرين وأكثر من ذلك حتى يتحققوا أنها لا تأكل ولا تشرب.

(١٠) أي يوكلون من يراقب هل يأخذ لها أحد طعامًا وشرابًا.

(١١) أي يجسئون إليها.

(١٢) أي يغطونها باللباس.

(١٣) أي يتركونها.

يَوْمًا فَيَوْمًا^(١) لَا فَضْلَ فِي كَسْبِهِ عَنْ قُوْتِ أَهْلِهِ، وَأَتَمَّا وَلَدَتْ لَهُ عِدَّةٌ أَوْلَادٍ، وَجَاءَ الْأَقْطَعُ مِلْكُ التُّرْكِ إِلَى الْقَرْيَةِ فَعَبَرَ الْوَادِيَّ عِنْدَ جُمُودِهِ إِلَيْنَا فِي زُهَاءٍ ثَلَاثَةِ أَلْفِ فَارِسٍ^(٢) وَأَهْلُ خُورَزْمٍ يَدْعُونَهُ كَسْرَةً. قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ: وَالْأَقْطَعُ هَذَا كَانَ كَافِرًا عَاتِيًا غَاشِمًا^(٣) شَدِيدَ الْعَدَاوَةِ لِلْمُسْلِمِينَ^(٤) قَدْ أَثَّرَ عَلَى أَهْلِ الشُّعُورِ^(٥) وَأَلَحَّ عَلَى أَهْلِ خُورَزْمٍ بِالسَّيِّئِ وَالْقَتْلِ وَالْغَارَاتِ وَكَانَ وُلَاةُ خُرَاسَانَ يَتَأَلَّفُونَهُ وَأَشْبَاهَهُ مِنْ عُظَمَاءِ الْأَعَاجِمِ لِيَكْفُوا غَارَاتِهِمْ عَنِ الرَّعِيَّةِ وَيَحْقِنُوا دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ^(٦) فَيَبْعَثُونَ إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِأَمْوَالٍ وَأَلْطَافٍ كَثِيرَةٍ وَأَنْوَاعٍ مِنْ فَاحِشِ الثِّيَابِ^(٧) وَإِنَّ هَذَا الْكَافِرَ اسْتَاءَ فِي بَعْضِ السَّنِينَ عَلَى السُّلْطَانِ، وَلَا أَدْرِي لِمَ ذَاكَ، أَسْتَبْطَأَ الْمُبَارَّ عَنْ وَقْتِهَا أَمْ اسْتَقَلَّ مَا بُعِثَ إِلَيْهِ فِي جَنْبِ مَا بُعِثَ إِلَى نُظَرَائِهِ مِنَ الْمُلُوكِ^(٨) فَأَقْبَلَ فِي جُنُودِهِ وَاسْتَعْرَضَ الطَّرِيقَ^(٩) فَعَاثَ وَأَفْسَدَ وَقَتَلَ وَمَثَلَ فَعَجَزَ عَنْهُ خِيُولُ خُورَزْمٍ، وَبَلَغَ خَبْرُهُ أَبَا الْعَبَّاسِ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ طَاهِرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَأَنْهَضَ إِلَيْهِ أَرْبَعَةً مِنَ الْقَوَادِ^(١٠): طَاهِرَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مَالِكٍ، وَيَعْقُوبَ بْنَ مَنْصُورٍ بْنِ طَلْحَةَ، وَمِيكَالَ مَوْلَى طَاهِرٍ، وَهَارُونَ الْعَارِضَ وَشَحْنَ الْبَلَدَ بِالْعَسَاكِرِ وَالْأَسْلِحَةِ وَرَتَّبَهُمْ فِي أَرْبَاعِ الْبَلَدِ كُلِّ فِي رُبْعٍ، فَحَمَوْا الْحَرِيمَ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى، ثُمَّ إِنَّ وَادِيَّ جَيْحُونَ وَهُوَ الَّذِي فِي أَعْلَى نَهْرِ بَلَخٍ جَمَدَ لَمَّا اشْتَدَّ الْبَرْدُ، وَهُوَ وَادٍ عَظِيمٌ شَدِيدُ الطُّغْيَانِ^(١١) كَثِيرُ الْآفَاتِ وَإِذَا امْتَدَّ كَانَ عَرْضُهُ نَحْوًا مِنْ فَرَسَخٍ وَإِذَا جَمَدَ انْطَبَقَ فَلَمْ يُوصَلْ مِنْهُ إِلَى شَيْءٍ

(١) أَي كَانَ يُحْصَلُ مَصْرُوفٌ يَوْمٌ ثُمَّ مَصْرُوفَ الْيَوْمِ الَّذِي بَعْدَهُ، كُلُّ يَوْمٍ بِيَوْمِهِ.

(٢) أَي فِي قَدَرٍ ثَلَاثَةِ أَلْفِ مُقَاتِلٍ جَاءَ إِلَيْهِمْ لَمَّا كَانَ النَّهْرُ جَمَدَ فِي الشِّتَاءِ، لِأَنَّ هَذَا النَّهْرَ فِي الشِّتَاءِ يَصِيرُ جَامِدًا مِثْلَ الْأَرْضِ يُنْشَى عَلَيْهِ.

(٣) أَي شَدِيدُ الظُّلْمِ.

(٤) أَي يَكْرَهُ الْمُسْلِمِينَ جَدًّا.

(٥) أَي عَلَى أَهْلِ الْمَوَاضِعِ الَّتِي تَلِي جِهَةَ الْكُفَّارِ.

(٦) أَي كَانُوا يُصَادِفُونَهُ حَتَّى لَا يَعْمَلَ هُجُومًا فَيَقْتُلَ الْمُسْلِمِينَ، لِيَحْفَظُوا دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ.

(٧) أَي كَانُوا يُعْطَوْنَهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ حَتَّى يَكْفُوا شَرَّتَهُمْ عَنِ الْمُسْلِمِينَ.

(٨) مَعْنَاهُ أَنَّ هَذَا الْكَافِرَ اسْتَاءَ إِمَّا لِأَنَّهُ انْقَطَعَ عَنْهُ مَا كَانُوا فِي الْأَوَّلِ يُعْطُونَهُ إِيَّاهُ أَوْ اسْتَقَلَّ فَقَالَ: كَيْفَ أُعْطَوْنِي هَذَا الْقَدْرَ الْقَلِيلَ، لِهَذَا جَاءَ إِلَيْهِمْ.

(٩) أَي مَنَعَ النَّاسَ مِنَ الْمُرُورِ.

(١٠) أَي أَرْسَلَ إِلَيْهِ أَرْبَعَةً مِنَ الْقَوَادِ.

(١١) أَي يُبْلَغُ الزُّرْعِ.

حَتَّى يُخْفَرَ فِيهِ كَمَا تُخْفَرُ الْآبَارُ فِي الصُّخُورِ وَقَدْ رَأَيْتُ كَثِيفَ الْجَمَدِ عَشْرَةَ أَشْبَارٍ،
وَأُخْبِرْتُ أَنَّهُ كَانَ فِيهَا مَضَى يَزِيدُ عَلَى عِشْرِينَ شَبْرًا وَإِذَا هُوَ انْطَبَقَ صَارَ الْجَمَدُ جَسْرًا
لَأَهْلِ الْبَلَدِ تَسِيرُ عَلَيْهِ الْعَسَاكِرُ وَالْعَجَلُ^(١) وَالْقَوَافِلُ فَيَنْطُمُّ مَا بَيْنَ الشَّاطِئَيْنِ، وَرُبَّمَا دَامَ
الْجَمَدُ مِائَةً وَعِشْرِينَ يَوْمًا، وَإِذَا قَلَّ الْبَرْدُ فِي عَامٍ بَقِيَ سَبْعِينَ يَوْمًا إِلَى نَحْوِ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ.

قَالَتِ الْمَرْأَةُ: فَعَبَّرَ الْكَافِرُ فِي خَيْلِهِ إِلَى بَابِ الْحِصْنِ وَقَدْ تَحَصَّنَ النَّاسُ وَضَمُّوا أُمْتِعَتَهُمْ
وَصَبَّحُوا الْمُسْلِمِينَ^(٢) وَأَضْرَبُوا بِهِمْ فَخَصِرَ مِنْ ذَلِكَ أَهْلُ النَّاحِيَةِ وَأَرَادُوا الْخُرُوجَ فَمَنْعَهُمُ
الْعَامِلُ^(٣) دُونَ أَنْ تَتَوَافَى عَسَاكِرُ السُّلْطَانِ وَتَتَلَاخَقَ الْمَتَطَوِّعَةُ، فَشَدَّ طَائِفَةٌ مِنْ شُبَّانِ
النَّاسِ وَأَخْدَثَهُمْ فَتَقَارَبُوا مِنَ السُّورِ بِمَا أَطَاقُوا حَمَلَهُ مِنَ السَّلَاحِ^(٤) وَحَمَلُوا عَلَى الْكُفْرَةِ
فَتَهَارَجَ الْكُفْرَةُ^(٥) وَاسْتَجْرَوْهُمْ مِنْ بَيْنِ الْأَبْنِيَةِ وَالْحِيطَانِ، فَلَمَّا أَصْحَرُوا كَرَّ الْكُفَّارُ
عَلَيْهِمْ^(٦) وَصَارَ الْمُسْلِمُونَ فِي مِثْلِ الْحَرْجَةِ^(٧) فَتَحَصَّنُوا وَاتَّخَذُوا دَارَةً يُحَارِبُونَ مِنْ وَرَائِهَا
وَانْقَطَعَ مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْحِصْنِ وَبَعُدَتِ الْمَعُونَةُ عَنْهُمْ فَحَارَبُوا كَأَشَدِّ حَرْبٍ وَثَبَّتُوا حَتَّى
تَقَطَّعَتِ الْأَوْتَارُ وَالْقَسِيُّ^(٨) وَأَدْرَكَهُمْ التَّعَبُ وَمَسَّهُمُ الْجَوْعُ وَالْعَطَشُ وَقُتِلَ مَعْظَمُهُمْ
وَأُتْخِنَ الْبَاقُونَ بِالْجِرَاحَاتِ^(٩).

وَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِمُ اللَّيْلُ^(١٠) تَحَاجَزَ الْفَرِيقَانِ^(١١) قَالَتِ الْمَرْأَةُ: وَرُفِعَتِ النَّارُ عَلَى الْمَنَاطِرِ
سَاعَةً عُبُورِ الْكَافِرِ، فَاتَّصَلَ الْخَبَرُ بِالْجُرْجَانِيَّةِ وَهِيَ مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ فِي قَاصِيَةِ

(١) أي الحمول.

(٢) أي هاجمهم صباحًا.

(٣) أي الحاكم.

(٤) معناه أَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا مُسْتَعِدِّينَ لِلْقَاءِ هَذَا الْكَافِرِ، ثُمَّ بَعْضُ الشُّبَّانِ تَحَسُّسًا فَتَقَدَّمُوا إِلَيْهِ لَضَرْبِهِ.

(٥) أي تظاهروا بالخوف.

(٦) معناه لَمَّا صَارُوا فِي الصُّخْرَاءِ أَيْ لَمَّا خَرَجُوا إِلَى الْبَرِّيَّةِ كَرَّ عَلَيْهِمُ الْكُفَّارُ.

(٧) أي فِي مِثْلِ الْغَابَةِ. الْمَشْجَرَةُ تَكُونُ بَيْنَ الْأَشْجَارِ لَا تَصِلُ إِلَيْهَا الْاَكَلَةُ الَّتِي تَرعى يُقَالُ فِي الْحَاجِزِ دَخَلُوا فِي الْحَرْجِ أَيْ فِي الضِّيقِ.

(٨) الْأَوْتَارُ جَمْعٌ وَتَرٍ وَهُوَ مَا لِلْقَوْسِ، وَالْقَسِيُّ جَمْعٌ قَوْسٍ.

(٩) مَعْنَاهُ مَاتَ أَكْثَرُهُمْ وَالْآخَرُونَ أُتْخِنُوا مَعْنَاهُ أَصَابَهُمْ جِرَاحَاتٌ شَدِيدَةٌ وَلَكِنْ لَمْ يَمُوتُوا.

(١٠) أَيْ لَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِمُ اللَّيْلُ.

(١١) أَيْ هَؤُلَاءِ تَوَقَّفُوا عَنْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ تَوَقَّفُوا عَنْ هَؤُلَاءِ.

خُوارِزْمٌ^(١)، وكانَ ميكَالُ مَوْلى طَاهِرٍ بِهَا فِي عَسْكَرٍ فَخَفَّ فِي الطَّلَبِ^(٢) هَيِّئَةً لِلْأَمِيرِ أَبِي الْعَبَّاسِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَرَكَّضَ إِلَى هَزَارَاسَبْ فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ أَرْبَعِينَ فَرَسًا بِفَرَايِخِ خُوارِزْمٍ وَفِيهَا فَضْلٌ كَثِيرٌ عَلَى فَرَايِخِ خُرَّاسَانَ^(٣). وَغَدَا الْكَفَّارُ لِلْفَرَاغِ مِنْ أَمْرِ أَوْلَيْكَ النَّفَرِ^(٤) فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ ارْتَفَعَتْ لَهُمُ الْأَعْلَامُ السُّودُ وَسَمِعُوا أَصْوَاتَ الطُّبُولِ فَأَفْرَجُوا عَنِ الْقَوْمِ^(٥)، وَوَأْفَى مِيكَالُ^(٦) مَوْضِعَ الْمَعْرَكَةِ فَوَارَى الْقَتْلَى وَحَمَلَ الْجَرْحَى^(٧). قَالَتِ الْمَرْأَةُ: وَأَدْخَلَ الْحِصْنَ عَلَيْنَا عَشِيَّةَ ذَلِكَ زُهَاءُ أَرْبَعَمِائَةٍ جَنَازَةٍ، فَلَمْ تَبْقَ دَائِرٌ إِلَّا حُمْلُ إِلَيْهَا قَتِيلٌ وَعَمَّتِ الْمَصِيبَةُ وَارْتَجَّتِ النَّاحِيَةُ بِالْبُكَاءِ.

قَالَتْ: وَوُضِعَ زَوْجِي بَيْنَ يَدَيَّ قَتِيلًا فَأَذْرَكَنِي مِنَ الْجَزَعِ وَالْهَلَعِ^(٨) عَلَيْهِ مَا يُدْرِكُ الْمَرْأَةَ الشَّابَّةَ عَلَى زَوْجِهَا أَبِي الْأَوْلَادِ، وَكَانَتْ لَنَا عِيَالٌ. قَالَتْ: فَاجْتَمَعَ النِّسَاءُ مِنْ قَرَابَاتِي وَالْجِيرَانِ يُسَاعِدَنِي عَلَى الْبُكَاءِ^(٩)، وَجَاءَ الصَّبِيَّانُ وَهُمْ أَطْفَالٌ لَا يَعْقِلُونَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْئًا^(١٠) يَطْلُبُونَ الْخُبَرَ وَلَيْسَ عِنْدِي مَا أَعْطِيهِ فَضِقْتُ صَدْرًا بِأَمْرِي ثُمَّ إِنِّي سَمِعْتُ أَذَانَ الْمَغْرِبِ فَفَزَعْتُ إِلَى الصَّلَاةِ^(١١) فَصَلَّيْتُ مَا قَضَى لِي رَبِّي ثُمَّ سَجَدْتُ أَدْعُو وَأَتَضَرَّعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَأَسْأَلُهُ الصَّبْرَ وَأَنْ يَجْبُرَ يُنْصِرَ صَبِيَّانِي فَذَهَبَ بِيَ النَّوْمُ فِي سَجُودِي فَرَأَيْتُ فِي مَنَامِي كَأَنِّي فِي أَرْضٍ حَسَنَاءَ ذَاتِ حِجَارَةٍ وَأَنَا أَطْلُبُ زَوْجِي، فَنَادَانِي رَجُلٌ: إِلَى أَيْنَ

(١) أي في أطرافها.

(٢) أي أسرع في الطلب.

(٣) يعني عندهم في عَادَتِهِمْ فَرَايِخُهُمْ تَزِيدُ عَلَى فَرَايِخِ تِلْكَ الْبِلَادِ.

(٤) النَّفَرُ أي الجماعة.

(٥) معناه الْكَفَّارُ هَزَبُوا مَا رَأَوْا الْجَيْشَ الْإِسْلَامِيَّ قَادِمًا.

(٦) أي حضر مِيكَالُ.

(٧) أي دَفَنَ الْقَتْلَى الَّذِينَ مَاتُوا، وَالْجَرْحَى حَمَلَهُمْ مِنَ الْمَكَانِ الَّذِي كَانُوا فِيهِ إِلَى مَكَانٍ الْمَدَاوَةِ.

(٨) أي الْحُزْنَ الشَّدِيدَ وَالْبُكَاءَ.

(٩) أي يُسَاعِدَنِي عَلَى الْحُزَنِ.

(١٠) أي لَا يُدْرِكُونَ مَعْنَى هَذِهِ الْمَصِيبَةِ.

(١١) أي قُمْتُ إِلَى الصَّلَاةِ وَجَأْتُ إِلَيْهَا. هَذِهِ عَلَامَةٌ عَلَى أَنَّهَا تَقِيَّةٌ.

أَيُّهَا الْحُرَّةُ؟ قُلْتُ: أَطْلُبُ زَوْجِي، فَقَالَ: خُذِي ذَاتَ الْيَمِينِ، فَرَفَعَ لِي أَرْضًا سَهْلَةً^(١) طَيِّبَةُ الرَّيِّ ظَاهِرَةُ الْعُشْبِ وَإِذَا قُصُورٌ وَأَبْنِيَّةٌ لَا أَحْفَظُ أَنْ أَصِفَهَا وَلَمْ أَرِ مِثْلَهَا^(٢) وَإِذَا أَنَهَارٌ تَجْرِي عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ بَعِيرٌ أَخَادِيدَ^(٣) لَيْسَ لَهَا حَافَاتٌ، فَاَنْتَهَيْتُ إِلَى قَوْمٍ جُلُوسٍ حَلَقًا حَلَقًا^(٤) عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ خُضْرٌ قَدْ عَلَاهُمُ النُّورُ، فَإِذَا هُمْ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي الْمَعْرَكَةِ يَأْكُلُونَ عَلَى مَوَائِدَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ فَجَعَلْتُ أَتَخَلَّلُهُمْ وَأَتَصَفَّحُ وَجُوهَهُمْ^(٥) لِأَلْقَى زَوْجِي لَكِنَّهُ هُوَ يَنْظُرُنِي، فَنَادَانِي: يَا رَحْمَةً! فَيَمَّمْتُ الصَّوْتِ^(٦) فَإِذَا بِهِ فِي مِثْلِ حَالٍ مِنْ رَأَيْتُ مِنَ الشُّهَدَاءِ، وَجْهُهُ مِثْلُ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ وَهُوَ يَأْكُلُ مَعَ رُفْقَةٍ لَهُ قُتِلُوا يَوْمَئِذٍ مَعَهُ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: إِنَّ هَذِهِ الْبَائِسَةَ جَائِعَةٌ مُنْذُ الْيَوْمِ أَفْتَأَذُنُونَ لِي أَنْ أَتَنَاوِلَهَا شَيْئًا تَأْكُلُهُ؟ فَأَذِنُوا لَهُ، فَنَاوَلَنِي كِسْرَةً خُبْزٍ^(٧). قَالَتْ: وَأَنَا أَعْلَمُ حِينَئِذٍ أَنَّهُ خُبْزٌ وَلَكِنْ لَا أَدْرِي كَيْفَ يُخْبِزُ، هُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ الثَّلَجِ وَاللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ وَالسُّكَّرِ وَالْيَنْ مِنْ الزُّبْدِ وَالسَّمْنِ^(٨)، فَأَكَلْتُهُ فَلَمَّا اسْتَقَرَّ فِي جَوْفِي قَالَ: اذْهَبِي كِفَاكِ اللَّهِ مَوْوَنَةَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ مَا حَيَّيْتُ فِي الدُّنْيَا، فَاَنْتَبَهْتُ مِنْ نَوْمِي شَبْعَى رِيًّا لَا أَحْتَاجُ إِلَى طَعَامٍ وَلَا شَرَابٍ وَمَا دُقْتُهِمَا مِنْذُ ذَلِكَ إِلَى يَوْمِي هَذَا وَلَا شَيْئًا يَأْكُلُهُ النَّاسُ.

وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ: وَكَانَتْ تَحْضُرُنَا وَكُنَّا نَأْكُلُ فَتَسْحَى وَتَأْخُذُ عَلَى أَنْفِهَا تَرْعُمُ أَهْمًا تَتَأَذَّى مِنْ رَائِحَةِ الطَّعَامِ، فَسَأَلْتُهَا: أَتَتَغَذَّى بِشَيْءٍ أَوْ تَشْرَبُ شَيْئًا غَيْرَ الْمَاءِ؟ فَقَالَتْ: لَا، فَسَأَلْتُهَا: هَلْ يَخْرُجُ مِنْهَا رِيحٌ أَوْ أَذَى كَمَا يَخْرُجُ مِنَ النَّاسِ؟ قَالَتْ: لَا عَهْدَ لِي بِالْأَذَى

(١) أَيِ رَأَيْتُ أَرْضًا سَهْلَةً.

(٢) أَيِ لَا اسْتَطِيعُ أَنْ أَصِفَهَا مِنْ حُسْنِهَا.

(٣) أَيِ لَيْسَتْ فِي وَهَادٍ غَمِيقَةٍ، إِنَّمَا يُوْخِذُ مِنْهَا الْمَاءُ بِسَهْوَةٍ.

(٤) مَعْنَاهُ يَجْلِسُونَ فِي دَوَائِرٍ.

(٥) أَيِ أَتَأَمَّلُهَا.

(٦) أَيِ تَبَعْتُ وَقَصَدْتُ صَوْتَهُ.

(٧) أَيِ قِطْعَةٍ خُبْزٍ.

(٨) أَيِ طَرَاوُثِهِ أَشَدَّ مِنَ الزُّبْدِ وَالسَّمْنِ.

منذ ذلك الزمان، قلت: والحيض؟ أظنّها قالت: انقطع بانقطاع الطَّعْمِ^(١)، قلت: هل تحتاجين حاجة النساء إلى الرجال قالت: أما تستحي مني تسألني عن مثل هذا، قلت: إني لعلّي أحدث الناس عنك ولا بد أن أستقصي، قالت: لا أحتاج، قلت: فتنامين؟ قالت: نعم أطيب نوم، قلت: فما ترين في منامك؟ قالت: مثلما ترؤن، قلت: فتجدين لفقد الطعام وهنًا؟ قالت: ما أحسستُ بجوع منذ طعمتُ ذلك الطعام، وكانت تقبل الصدقة فقلت لها: ما تصنعين بها، قالت: أكتسي وأكسو ولدي، قلت: فهل تجدين البرد وتتأذنين بالحر؟ قالت: نعم، قلت: يُدركك اللُّغوبُ^(٢) إذا مشيت؟ قالت: نعم أَلَسْتُ من البشر، قلت: فتتوضئين للصلاة؟ قالت: نعم، قلت: لم؟ قالت: أمرني الفقهاء بذلك، قلت: إنهم أفتوها على حديث: "لا وضوء إلا من حدث أو نوم"، وذكرت لي أن بطنها لاصق بظهرها، فأمرت امرأة من نساينا فنظرت (أي إلى غير العورة) فإذا بطنها كما وصفت وإذا قد اتخذت كيسًا فضمت القطن وشدته على بطنها كي لا ينقص ظهرها إذا مشت، ثم لم أزل أختلف إلى هزاراسب بين السنتين والثلاث فتحضرني فأعيد مسألتها فلا تزيد ولا تنقص، وعرضت كلامها على عبد الله بن عبد الرحمن الفقيه، فقال: أنا أسمع هذا الكلام منذ نشأت فلا أجد من يدفعه أو يزعم أنه سمع أنّها تأكل أو تشرب أو تتعوط. انتهى.

فهذه القصة فيها أن لا تلازم عقلي بين فقدان الأكل وبين المرض وذهاب الصحة وإخدام البنية وكذلك سائر الأسباب العادية يصح عقلا أن تتخلف مفعولاتها وأن الأشياء بمشيئة الله تعالى، وأن الشهداء لهم حياة برزخية فسبحان القدير على كل شيء.

(١) أي الطعام.

(٢) أي التعب.

تَنْبِيْهُ مُهْمٌ

لا يُعْفَى الجاهِلُ ممَّا ذكرناه من الأصول، ولا يُعْذَرُ فيما يَقَعُ منه من الكُفْرِ لعدَمِ اهتمامِهِ بالدِّينِ.

ولو كان الجهلُ يُسْقِطُ المؤاخَذَةَ لكانَ الجهلُ خَيْرًا من العلمِ وهذا خِلافُ قوله تعالى:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الزمر].

إلا أنَّ من كانَ قَريبَ عهدٍ بإسلامٍ ونحوه لا يكفرُ بإنكارِ فرضيَّةِ الصلاةِ وتحريمِ الخمرِ ونحو ذلك إن لم يكن سَمِعَ أن هذا دين الإسلام.

والفرضُ الأولُ في حقِّ الأهلِ تعلِيمُهُمُ أصولَ العقيدةِ كيلا يَقْعُوا في الكفرِ بجهلِهِم بالعقيدةِ فإن اعتقدوا أنَّ اللهَ جِسْمٌ نورانيٌّ أبيضٌ أو نحو ذلك فاستمرُّوا بعدَ البلوغِ على ذلكَ فماتوا عليه خُلِدُوا في النارِ نتيجةً اعتقاداتِهِمُ الفاسدةِ.

قال الفضيلُ بنُ عِيَّاضٍ: "لا يُعْرَنُّكَ كثرةُ الهالكين"، فهل هذا الجهلُ في العقيدة هو نتيجةُ محبةِ الأهلِ لأبنائِهِم؟

وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات].

وجاء في تفسير الآية: أي وما خلقَ الله الجنَّ والإنسَ إلا لِيَأْمُرَهُم بعبادته.

وبعدَ أن جاءنا الهدى وهو الرسولُ ﷺ وقامت علينا الحجَّةُ به فلا عُذْرَ لنا، قال تعالى:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء].

النُّبُوَّةُ

اشتقاقها من النَّبَأِ أي الخبرِ لأنَّ النُّبُوَّةَ إخبارٌ عن الله، أو من النَّبَوَةِ وهي الرَّفْعَةُ، فالنَّبِيُّ على الأولِ فَعِيلٌ بمعنى فاعِلٍ لأنَّه يُخْبِرُ عن الله بما يُوحَى إليه، أو فَعِيلٌ بمعنى مفعولٍ أي مُخْبَرٌ عن الله أي يُخْبِرُهُ الْمَلَكُ عن الله، فالنُّبُوَّةُ جائزةٌ عقلاً ليست مستحيلةً. وإنَّ الله تعالى بعثَ الأنبياءَ رحمةً للعبادِ إذ ليسَ في العقلِ ما يُسْتَعْنَى به عنهم لأنَّ العقلَ لا يَسْتَقِلُّ بمعرفةِ الأشياءِ المنجِيَةِ في الآخرة. ففي بَعَثَةِ الأنبياءِ مصلحةٌ ضروريةٌ لحاجتهم لذلك، فالله متفضلٌ بما على عباده فهي سَفَارَةٌ بين الحقِّ تعالى وبين الخلقِ.

الفرقُ بين الأنبياءِ والرُّسُلِ

اعلم أن النبيَّ والرَّسُولَ يشتركان في الوحي، فكلُّ قد أُوْحِيَ الله إليه بشرعٍ يَعْمَلُ به لتبليغِهِ للنَّاسِ.

غيرَ أنَّ الرِّسُولَ يأتي بنسخِ بعضِ شرعٍ مَن قبله أو بِشَرْعٍ جديدٍ.

والنَّبِيُّ غيرُ الرِّسُولِ يُوحَى إليه ليتَّبَعَ شرعَ رسولٍ قبله وليُبلِّغَهُ.

فلذلك قال العلماء: "كلُّ رسولٍ نبيٌّ وليس كلُّ نبيٍّ رسولاً".

ثمَّ أيضاً يفترقان في أنَّ الرِّسالةَ يوصَفُ بها الْمَلَكُ والبشرُ والنُّبُوَّةُ لا تكونُ إلا في البشرِ.

ما يجبُ للأنبياءِ وما يستحيلُ عليهم

يجبُ للأنبياءِ الصِّدْقُ ويستحيلُ عليهم الكَذِبُ، وتجبُ لهم الفَطَانَةُ ويستحيلُ عليهم البلادةُ والعَبَاوَةُ، وتجبُ لهم الأمانةُ.

فالأنبياءُ سالمونَ من الكفرِ والكبائرِ وصغائرِ الحِسَّةِ وهذه هي العِصْمَةُ الواجبةُ لهم، ويستحيلُ عليهم الخيانةُ ويجبُ لهم الصِّيَانَةُ فيستحيلُ عليهم الرَّذَالَةُ والسَّفَاهَةُ والجُبْنُ وكلُّ ما ينقَرُ عن قبول الدعوة منهم. وكذلك يَسْتَحِيلُ عليهم كلُّ مَرَضٍ مُنْقَرٍ. فمن نسب إليهم الكذب أو الخيانة أو الرَّذَالَةَ أو السَّفَاهَةَ أو الجُبْنَ أو نحو ذلك فقد كَفَرَ.

المعجزةُ

اعلم أنَّ السَّبِيلَ إلى معرفة النبي المُعْجِزَةِ. وهي أمرٌ خارقٌ للعادة. يأتي على وَفْقِ دَعْوَى من ادَّعَوْا النُّبُوَّةَ. سَأَلُ مَنْ المُعَارَضَةِ بِالْمِثْلِ. فما كَانَ من الأمورِ عَجِيئًا ولم يكن خارقًا للعادة فليس بمعجزة. وكذلك ما كَانَ خارقًا لكنّه لم يقتَرَنَ بدَعْوَى النُّبُوَّةِ كالخوارق التي تظهرُ على أيدي الأولياءِ أَتباعِ الأنبياءِ فَإِنَّهُ ليسَ بمعجزةٍ بل يُسَمَّى كرامةً. وكذلك ليسَ من المعجزةِ ما يُسْتَطَاعُ معارضَتُهُ بِالْمِثْلِ كَالسَّحْرِ فَإِنَّهُ يُعَارَضُ بِسِحْرِ مِثْلِهِ. والمعجزةُ قِسْمَانِ:

قسمٌ يَقَعُ بعدَ اقتراحِ مَنْ الناسِ على الذي ادَّعَى النُّبُوَّةَ.

وقسمٌ يَقَعُ من غيرِ اقتراحٍ.

فالأوَّلُ نُحُو نَاقَةِ صَالِحٍ التي خَرَجَتْ من الصَّخْرَةِ. اقترح قومُه عليه ذلكَ بقولهم: إن كنتَ نبيًّا مبعوثًا إلينا لِنُؤْمِنَ بِكَ فَأُخْرِجْ لَنَا من هذه الصَّخْرَةِ نَاقَةً وفصيلها فأخرجَ لهم نَاقَةً معها فصيلها (أي ولدها) فاندَهَشُوا فآمنوا به.

لأنَّه لو كَانَ كاذبًا في قوله إِنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ لَمْ يَأْتِ بهذا الأمرِ العجيبِ الخارقِ للعادة الذي لم يَسْتَطِعْ أَحَدٌ من النَّاسِ أن يعارضه بمثل ما أتى به، فَثَبَّتَ الْحُجَّةَ عَلَيْهِم.

ولا يَسْعُهُمْ إِلَّا الإِذْعَانُ وَالتَّصْدِيقُ لِأَنَّ الْعَقْلَ يُوجِبُ تَصْدِيقَ مَنْ أَتَى بِمِثْلِ هَذَا الْأَمْرِ
الَّذِي لَا يُسْتَطَاعُ مُعَارَضَتُهُ بِالْمِثْلِ مِنْ قَبْلِ الْمَعَارِضِينَ. فَمَنْ لَمْ يُذْعِنْ وَعَانَدَ يُعَدُّ مُهْدِرًا
لِقِيَمَةِ الْبُرْهَانِ الْعَقْلِيِّ.

من المعجزات التي حصلت

لِمَنْ قَبْلَ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ

ومن أمثلة المعجزات التي حصلت لمن قبل محمدٍ عدم تأثير النار العظيمة على إبراهيم
حيث لم تحرقه ولا ثيابه.

ومنها انقلاب عصا موسى ثعباناً حقيقياً ثم عودها إلى حالتها بعد أن اعترف السحرة
الذين أحضرهم فرعون لمعارضته وأذعنوا فأمنوا بالله وكفروا بفرعون واعترفوا لموسى بأنه
صديق فيما جاء به.

ومنها ما ظهر للمسيح من إحياء الموتى وذلك لا يُسْتَطَاعُ مُعَارَضَتُهُ بِالْمِثْلِ فلم تستطع
اليهود الذين كانوا مُولعين بتكذيبه وحريصين على الافتراء عليه أن يعارضوه بالمثل.
وقد أتى أيضاً بعجيبَةٍ أخرى عظيمة وهي إبراء الأكمه فلم يستطع أحدٌ من أهل عصره
معارضته بالمثل مع توفّر الطب في ذلك العصر. فذلك دليلٌ على صدقه في كل ما
يُخبرُ به من وجوب عبادة الخالق وحده من غير إشراك به ووجوب متابعتِه في الأعمال
التي يأمرهم بها.

من معجزاته ﷺ

وأما محمد ﷺ فمن معجزاته صلى الله عليه وعلى جميع إخوانه الأنبياء:

١- حينئذ الجذع، وذلك أنّ النبي ﷺ كان يستند حين يخطب إلى جذع نخل في مسجده قبل أن يعمل له المنبر، فلما عمل له المنبر صعد ﷺ عليه فبدأ بالخطبة وهو قائم على المنبر فحنّ الجذع حتى سمع حنينه من في المسجد، فنزل رسول الله ﷺ فالتزمه - أي ضمّه واعتنقه - فسكت.

٢- ومن معجزاته ﷺ إنطاق العجماء أي البهيمة. روى الإمام أحمد والبيهقي بإسناد صحيح من حديث يعلى بن مرة الثقفي قال: بينما نسير مع النبي ﷺ إذ مر بنا بئر يُسنى عليه^(١) فلما رآه البئر جرح^(٢) فوضع جرائه^(٣) فوقف عليه النبي ﷺ، فقال: «أين صاحب هذا البئر؟» فجاءه فقال: «بعينه»، فقال: بل نهبه لك يا رسول الله وإنه لأهل بيت ما هم معيشة غيره، فقال النبي: «أما ما ذكرت من أمره فإنه شكاً كثرة العمل وقلة العلف فأحسنوا إليه».

٣- وأخرج ابن شاهين في دلائل النبوة عن عبد الله بن جعفر قال: أردفني رسول الله ﷺ ذات يوم خلفه فدخل حائط رجل^(٤) من الأنصار فإذا جمل فلما رأى النبي ﷺ حنّ فذرفت عيناه فأتاه النبي ﷺ فمسح ذفراته^(٥) فسكن، ثم قال: «من رب هذا الجمل؟» فجاء فتى من الأنصار، فقال: هذا لي، فقال: «ألا تتقي الله في هذه

(١) أي يُحمل عليه الماء.

(٢) أي أصدر صوتاً من حلقه.

(٣) أي مقدّم عنقه.

(٤) أي بستان.

(٥) أي تتعبه.

البهيمة التي ملّك الله إياها فإنه شكّا إليّ أنك تُجيّعه وتُدبّبه». وهو حديث صحيح كما قال المحدث مُرتضى الزبيدي في شرح إحياء علوم الدين.

٤- ومنها تفجّر الماء من بين أصابعه بالمشاهدة في عدّة مواطن في مشاهد عظيمة ورَدَتْ من طرق كثيرة يُفيد مجموعها العلم القطعيّ المستفاد من التواتر المعنوي^(١) ولم يحصل لغير نبينا حيث نبع من عظمه وعصبه ولحمه ودمه وهو أبلغ من تفجّر المياه من الحجر الذي ضربهُ موسى لأنّ خروج الماء من الحجرة معهودٌ بخلافه من بين اللحم والدّم. رواه جابرٌ وأنسٌ وابنُ مسعودٍ وابنُ عباسٍ وأبو ليلى الأنصاريُّ وأبو رافع.

وقد أخرج الشيخان من حديث أنسٍ بلفظ: "رأيتُ رسولَ الله ﷺ وقد حانت صلاةُ العصرِ والتمسَ الوضوءَ"^(٢) فلم يجدوه فأُتي رسولُ الله ﷺ بوضوءٍ فوضع يده في ذلك الإناء فأمرَ الناسَ أن يتوضّؤوا فرأيتُ الماءَ ينبُع من بين أصابعه فتوضّأ الناسُ حتّى توضّؤوا من عندٍ آخرهم". وفي روايةٍ للبخاريّ قال الراوي لأنسٍ: كم كنتم؟ قال: ثلاثمائة.

وروى البخاريُّ ومسلمٌ من حديث جابرٍ أيضاً: "عطشَ الناسُ يومَ الحديبية وكان رسولُ الله ﷺ بين يديه ركوةٌ يتوضّأ منها فجَهِشَ الناسُ"^(٣) فقال: «مَا لَكُمْ؟» فقالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَيْسَ عِنْدَنَا مَا نَتَوَضَّأُ بِهِ وَلَا مَا نَشْرِبُهُ إِلَّا مَا بَيْنَ يَدَيْكَ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي الرُّكوةِ فَجَعَلَ الْمَاءُ يَفُورُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ كَأَمْثَالِ الْعُيُونِ، فَشَرَبْنَا وَتَوَضَّأْنَا، فَقِيلَ: كَمْ كُنْتُمْ؟ قَالَ: لَوْ كُنَّا مِائَةَ أَلْفٍ لَكَفَانَا كُنَّا خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةً".

والتَّحْقِيقُ أَنَّ الْمَاءَ كَانَ يَنْبُعُ مِنْ نَفْسِ اللَّحْمِ الْكَائِنِ فِي الْأَصَابِعِ وَبِهِ صَرَخَ النَّوِيُّ فِي شَرْحِ مُسْلِمٍ وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُ جَابِرٍ: "فَرَأَيْتُ الْمَاءَ يَخْرُجُ"، وَفِي رِوَايَةٍ "يَنْبُعُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ".

(١) أي لم يتفقوا على لفظ واحد.

(٢) أي طلب ماء الوضوء.

(٣) أي أقبلوا إليه.

- ٥ - ومن مُعْجَزَاتِهِ: رُدُّ عَيْنِ قَتَادَةَ بَعْدَ انْقِلَاعِهَا.
- فَقَدْ رَوَى الْبَيْهَقِيُّ فِي الدَّلَائِلِ عَنْ قَتَادَةَ بْنِ النُّعْمَانِ أَنَّهُ أُصِيبَتْ عَيْنُهُ يَوْمَ بَدْرٍ فَسَأَلَتْ حَدَقَتَهُ عَلَى وَجَنَّتِهِ فَأَرَادُوا أَنْ يَقْطَعُوهَا فَسَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ: «لَا»، فَدَعَا بِهِ فَعَمَزَ حَدَقَتَهُ بِرَاحَتِهِ، فَكَانَ لَا يَدْرِي أَيَّ عَيْنَيْهِ أُصِيبَتْ. اهـ.
- وَفِي هَاتَيْنِ الْمُعْجَزَتَيْنِ قَالَ بَعْضُ الْمَادِحِينَ شِعْرًا مِنَ الْبَسِيطِ:
- إِنْ كَانَ مُوسَى سَقَى الْأَسْبَاطَ مِنْ حَجَرٍ فَإِنْ فِي الْكَفِّ مَعْنَى لَيْسَ فِي الْحَجَرِ
إِنْ كَانَ عِيسَى بَرًّا^(١) الْأَعْمَى بِدَعْوَتِهِ فَكَمْ بِرَاحَتِهِ قَدْ رَدَّ مِنْ بَصَرٍ
- وَمِنْ مُعْجَزَاتِهِ تَسْبِيحُ الطَّعَامِ فِي يَدِهِ أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: "كُنَّا نَأْكُلُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ الطَّعَامَ وَنَحْنُ نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ".
- وَهَذِهِ الْمُعْجَزَاتُ الثَّلَاثُ أَعْجَبُ مِنْ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى الَّذِي هُوَ إِحْدَى مُعْجَزَاتِ الْمَسِيحِ.
- ٦ - وَمِنْ مُعْجَزَاتِهِ ﷺ: الْإِسْرَاءُ وَالْمِعْرَاجُ.

الْإِسْرَاءُ وَالْمِعْرَاجُ

الْإِسْرَاءُ ثَبَتَ بِنَصِّ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ الصَّحِيحِ فَيَحِبُّ الْإِيمَانُ بِأَنَّهُ ﷺ أُسْرِيَ اللَّهُ بِهِ لَيْلًا مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى.

وَأَمَّا الْمِعْرَاجُ فَقَدْ ثَبَتَ بِنَصِّ الْأَحَادِيثِ. وَأَمَّا الْقُرْآنُ فَلَمْ يُنْصَ عَلَيْهِ نَصًّا صَرِيحًا لَا يَحْتَمِلُ تَأْوِيلًا لَكِنَّهُ وَرَدَ فِيهِ مَا يَكَادُ يَكُونُ نَصًّا صَرِيحًا.

فَالْإِسْرَاءُ قَدْ جَاءَ فِيهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ لِإِزْيَاجِهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [سورة الإسراء].

(١) برا أصله براً بجمزة مفتوحة فعل لازم، ثم تركت الهمزة للوزن، والمعنى تعافى الأعمى بدعوة المسيح.

فإن قيل: قوله ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [سورة النجم] يحتمل أن يكون رؤيةً مناميّةً، قلنا: هذا تأويلٌ ولا يسوغُ تأويلُ النصِّ أي إخراجُه عن ظاهره لغير دليلٍ عقليٍّ قاطعٍ أو سمعيٍّ ثابتٍ كما قاله الرّازيُّ في "المخْصُول" وغيره من الأصوليين. وليس هنا دليلٌ على ذلك.

وقد روى مُسلمٌ عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «أُتيتُ بالبراق^(١) وهو دابةٌ أبيضُ طويلٌ فوقَ الحمارِ ودُونُ البغلِ يضعُ حافِرُهُ عندَ منتَهَى طرفه^(٢)»، قال: فركبته حتى أتيتُ بيتَ المقدسِ فربطته بالحلقة التي يربطُ بها الأنبياءُ، قال: ثم دخلتُ المسجدَ فصليتُ فيه ركعتين، ثم خرجتُ فجاءني جبريلُ عليه السلام ياناءٍ من خمرٍ وإناءٍ من لبنٍ فاخترتُ اللبن، فقال جبريلُ عليه السلام: "اخترتَ الفِطْرَةَ قال: ثم عرجَ بنا إلى السَّماءِ...."، إلى آخرِ الحديث. وفي الحديثِ دليلٌ على أنَّ الإسراءَ والمعراجَ كانا في ليلةٍ واحدةٍ برُوحِهِ وجَسَدِهِ يَقْظَةً إذ لم يقل أحدٌ إنّه وصلَ إلى بيتِ المقدسِ ثم نامَ.

رؤية النبي لربه بقلبه لا ببصره في تلك الليلة

أما رؤيةُ النبي لربه ليلةَ المعراج فقد روى الطبرانيُّ في المُعْجَم الأوسطِ بإسنادٍ قويٍّ كما قالَ الحافظُ ابن حجر عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما: "رأى محمدٌ رَبَّهُ مَرَّتَيْنِ". وروى ابنُ خزيمةٍ بإسنادٍ قويٍّ: "رأى محمدٌ رَبَّهُ".

(١) وهو من دواب الجنة.

(٢) أي حيث يصل نظره يضع رجله، كل خطوة من خطواته تسع إلى مد البصر، هذا أمر البراق من العجائب المخالفة للعادة.

والمراءد أنه رآه بقلبه بدليل حديث مسلم من طريق أبي العالية عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ (١١) ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ (١٢) ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ (١٣) ﴿[سورة النجم]﴾، قال: "رَأَىٰ رَبَّهُ بِفُؤَادِهِ مَرَّتَيْنِ".

تَنْبِيْهُ: قَالَ الْغَزَالِيُّ فِي إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ: "الصَّحِيحُ أَنَّ النَّبِيَّ لَمْ يَرِ رَبَّهُ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ"، ومراءده أنه لم يره بعينه إذ لم يثبت أن النبي ﷺ قال رأيته بعيني ولا أن أحدا من الصحابة أو التابعين أو أتباعهم قال: رآه بعيني رأسه.

وَجْهٌ دِلَالَةُ الْمَعْجَزَةِ عَلَى صِدْقِ النَّبِيِّ ﷺ

الأمْرُ الْخَارِقُ الَّذِي يَظْهَرُ عَلَى يَدٍ مِنْ أَدْعَاؤِ النَّبُوَّةِ مَعَ التَّحْدِي مَعَ عَدَمِ مَعَارَضَتِهِ بِالْمِثْلِ نَازِلٌ مَنَزَلَةً قَوْلِ اللَّهِ صَدَقَ عَبْدِي فِي كُلِّ مَا يُبْلَغُ عَنِّي، أَيِ لَوْلَا أَنَّهُ صَادِقٌ فِي دَعْوَاهُ لَمَا أَظْهَرَ اللَّهُ لَهُ هَذِهِ الْمَعْجَزَةَ، فَكَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ صَدَقَ عَبْدِي هَذَا الَّذِي ادَّعَى النَّبُوَّةَ فِي دَعْوَاهُ لِأَنِّي أَظْهَرْتُ لَهُ هَذِهِ الْمَعْجَزَةَ، لِأَنَّ الَّذِي يُصَدِّقُ الْكَاذِبَ كَاذِبٌ، وَاللَّهُ يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ الْكَذِبُ. فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ اللَّهَ إِنَّمَا خَلَقَهُ لِتَصْدِيقِهِ، إِذْ كُلُّ عَاقِلٍ يَعْلَمُ أَنَّ إِحْيَاءَ الْمَوْتَى وَقَلْبَ الْعَصَا تُعْبَانَا وَإِخْرَاجَ نَاقَةٍ مِنْ صَخْرَةٍ صَمَاءٍ لَيْسَ بِمَعْتَادٍ.

السَّبِيلُ إِلَى الْعِلْمِ بِالْمَعْجَزَةِ بِالْقَطْعِ وَالْيَقِينِ

الْعِلْمُ بِالْمَعْجَزَاتِ يَحْصُلُ:

بِالْمُشَاهَدَةِ لِمَنْ شَاهَدَوْهَا، وَبِبُلُوغِ خَبَرِهَا بِطَرِيقِ التَّوَاتُرِ فِي حَقِّ مَنْ لَمْ يَشْهَدْهَا، وَذَلِكَ كَعِلْمِنَا بِالْبُلْدَانِ النَّائِيَةِ وَالْحَوَادِثِ التَّارِيخِيَّةِ الثَّابِتَةِ الْوَاقِعَةِ لِمَنْ قَبَلْنَا مِنَ الْمُلُوكِ وَالْأُمَمِ، وَالْخَبْرُ الْمُتَوَاتِرُ يَقُومُ مَقَامَ الْمُشَاهَدَةِ، فَوَجَبَ الْإِذْعَانُ لِمَنْ أَتَى بِهَا عَقْلًا كَمَا أَنَّهُ وَاجِبٌ شَرْعًا.

الإيمان بعذاب القبر ونعيمه وسؤاله

قال الله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [سورة غافر].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [سورة طه].

فهاتان الآيتان واردتان في عذاب القبر للكفار، وأما عصاة المسلمين من أهل الكبائر الذين ماتوا قبل التوبة فهم صنفان: صنف يُعْفِيهِمُ الله من عذاب القبر وصنف يُعَذِّبُهُمْ ثُمَّ يَنْقُطِعُ عَنْهُمْ وَيُوَخِّرُ لَهُمْ بَقِيَّةَ عَذَابِهِمْ إِلَى الآخرة.

فقد روى البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود والنسائي عن ابن عباسٍ مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ عَلَى قَبْرَيْنِ فَقَالَ: «إِنَّهُمَا لِيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ إِنْهُمْ»، قال: "بلى، أما أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ»، ثُمَّ دَعَا بِعَسِيبٍ رَطْبٍ فَشَقَّهُ اثْنَيْنِ فَعَرَسَ عَلَى هَذَا وَاحِدًا وَعَلَى هَذَا وَاحِدًا، ثُمَّ قَالَ: «لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا».

واعلم أنه ثبت في الأخبار الصحيحة عودُ الرُّوحِ إلى الجسدِ في القبرِ كحديثِ البراء بن عازبٍ الذي رواه الحاكم والبيهقي وأبو عوانة وصححه غير واحد، وحديث ابن عباسٍ مرفوعاً: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَمُرُّ بِقَبْرِ أَخِيهِ الْمُؤْمِنِ كَانَ يَعْرِفُهُ فِي الدُّنْيَا فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ إِلَّا عَرَفَهُ وَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ». رواه ابن عبد البر وعبد الحق الإشيلي وصححه.

فَيَسْتَلِزِمُ ذَلِكَ رَجُوعَ الرُّوحِ إِلَى الْبَدَنِ كُلِّهِ وَذَلِكَ ظَاهِرُ الْحَدِيثِ أَوْ إِلَى بَعْضِهِ. وَيَتَأَكَّدُ عَوْدُ الْحَيَاةِ فِي الْقَبْرِ إِلَى الْجَسَدِ مَزِيدَ تَأَكُّدٍ فِي حَقِّ الْأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّهُ وَرَدَ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «الْأَنْبِيَاءُ أَحْيَاءُ فِي قُبُورِهِمْ يُصَلُّونَ» صححه البيهقي وأقره الحافظ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ إِذَا انْصَرَفُوا أَتَاهُ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٍ؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ - أي الكامل - فيقول: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ أَبَدَ لَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا. وَأَمَّا الْكَافِرُ أَوِ الْمُنَافِقُ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ فِيهِ، فَيُقَالُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَيْتَ، ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ بَيْنَ أُذُنَيْهِ فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ».

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَكَرَ فَتَابِي الْقَبْرِ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَتُرَدُّ عَلَيْنَا عَقُولُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «نَعَمْ كَهَيْئَتِكُمْ الْيَوْمَ»، قَالَ: فَبِفِيهِ الْحَجَرُ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا قُبِرَ الْمَيِّتُ أَوِ الْإِنْسَانُ أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا مُنْكَرٌ وَلِلْآخَرِ نَكِيرٌ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٍ؟ فَهُوَ قَائِلٌ مَا كَانَ يَقُولُ. فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا قَالَ: هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فَيَقُولَانِ لَهُ: إِنَّ كُنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّكَ لَتَقُولُ ذَلِكَ، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعِينَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ ذِرَاعًا وَيُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ، فَيُقَالُ لَهُ: نَمْ، فَيَنَامُ كَنَوْمِ الْعُرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ. فَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ: لَا أَدْرِي، كُنْتُ أَسْمَعُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَكُنْتُ أَقُولُهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: إِنَّ كُنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ، ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَرْضِ التَّيْمِي فَتَلْتَمِمْ عَلَيْهِ حَتَّى تَخْتَلِفَ أَضْلَاعُهُ فَلَا يَزَالُ مُعَذَّبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ».

والحديثان رواهما ابن حبان وصححهما، ففي الأول منهما إثبات عود الروح إلى الجسد في القبر والإحساس، وفي الثاني إثبات استمرار الروح في القبر وإثبات النوم وذلك ما لم يبل الجسد.

وهذا التعميم للمؤمن القوي وهو الذي يؤدي الفرائض ويحْتَنِبُ المعاصي، وهو الذي قال رسول الله ﷺ فيه: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَسَنَّتُهُ فَإِذَا فَارَقَ الدُّنْيَا فَارَقَ السِّجْنَ وَالسَّنَةَ»، حديث صحيح أخرجه ابن حبان، يعني المؤمن الكامل.

ثم إذا بلى الجسد كله ولم يبق إلا عجب الذنب يكون روح المؤمن التقي في الجنة وتكون أرواح عصاة المسلمين أهل الكبائر الذين ماتوا بلا توبة بعد بلى الجسد فيما بين السماء والأرض، وبعضهم في السماء الأولى. وتكون أرواح الكفار بعد بلى الجسد في سجين، وهو مكان في الأرض السفلى. وأما الشهداء فتصعد أرواحهم فوراً إلى الجنة.

تنبيه: يُسْتَشْنَى من السؤال الأنبياء والشهداء أي شهداء المعركة وكذلك الطفل أي الذي مات دون البلوغ.

فإن قيل: كيف يمكن سؤال عدد كثير من الأموات؟
فالجواب ما قال الحليمي: "إنَّ الأَشْبَهَ أَنْ يَكُونَ مَلَائِكَةُ السُّؤَالِ جَمَاعَةً كَثِيرَةً يُسَمَّى بَعْضُهُمْ مُنْكَرًا وَبَعْضُهُمْ نَكِيرًا فَيُبْعَثُ إِلَى كُلِّ مَيِّتٍ اثْنَانِ مِنْهُمْ".

حُكْمُ مُنْكَرِ عَذَابِ الْقَبْرِ

ويُكْفَرُ مُنْكَرُ عَذَابِ الْقَبْرِ لِقَوْلِ اللَّهِ: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ ﴿٤٦﴾ [سورة غافر] بخلاف مُنْكَرِ سُؤَالِهِ فَلَا يَكْفَرُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ عَلَى وَجْهِ الْعِنَادِ.

الْبَعْثُ

الْبَعْثُ حَقٌّ، وَهُوَ خُرُوجُ الْمَوْتَى مِنَ الْقُبُورِ بَعْدَ إِعَادَةِ الْجَسَدِ الَّذِي أَكَلَهُ التُّرَابُ إِنْ كَانَ مِنَ الْأَجْسَادِ الَّتِي يَأْكُلُهَا التُّرَابُ وَهِيَ أَجْسَادُ غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ وَشُهَدَاءِ الْمَعْرَكَةِ وَبَعْضِ الْأَوْلِيَاءِ لِمَا تَوَاتَرَ مِنْ مُشَاهَدَةِ بَعْضِ الْأَوْلِيَاءِ. وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ ﷺ، وَأَهْلُ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ وَالطَّائِفِ مِنْ أَوَّلِ مَنْ يُبْعَثُ.

الْحَشْرُ

وَالْحَشْرُ حَقٌّ، وَهُوَ أَنْ يُجْمَعُوا بَعْدَ الْبَعْثِ إِلَى مَكَانٍ، وَيَكُونُ عَلَى الْأَرْضِ الْمَبْدَلَةِ، وَهِيَ أَرْضٌ مُسْتَوِيَّةٌ كَالْجِلْدِ الْمَشْدُودِ لَا جِبَالَ فِيهَا وَلَا وُدْيَانَ، أَكْبَرُ وَأَوْسَعُ مِنْ أَرْضِنَا هَذِهِ بَيَضاءَ كَالْفِضَّةِ.

وَيَكُونُ الْحَشْرُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَحْوَالٍ:

- (١) قِسْمٌ طَاعِمُونَ كَاسُونَ رَاكِبُونَ عَلَى نُوقٍ رَحَائِلُهَا مِنْ ذَهَبٍ وَهُمْ الْأَتْقِيَاءُ.
- (٢) وَقِسْمٌ خُفَاءٌ عُرَاءٌ وَهُمْ الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَهْلِ الْكِبَائِرِ.
- (٣) وَقِسْمٌ يُحْشَرُونَ وَيُجْرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ وَهُمْ الْكَفَّارُ.

الْحِسَابُ

وَالْحِسَابُ حَقٌّ، وَهُوَ عَرْضُ أَعْمَالِ الْعِبَادِ عَلَيْهِمْ، وَيَكُونُ بِتَكْلِيمِ اللَّهِ لِلْعِبَادِ جَمِيعِهِمْ، فَيَفْهَمُونَ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ السُّؤَالَ عَمَّا فَعَلُوا بِالنَّعَمِ الَّتِي أَعْطَاهُمُ اللَّهُ إِيَّاهَا، فَيُسَرُّ الْمُؤْمِنُ التَّقِيَّ، وَلَا يُسَرُّ الْكَافِرُ لِأَنَّهُ لَا حَسَنَةَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ، بَلْ يَكَادُ يَغْشَاهُ الْمَوْتُ، فَقَدْ وَرَدَ

في الحديث الصحيح: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيَكْلَمُهُ رَبُّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ»، رواه أحمد والترمذي.

الميزان

والميزان حق، وهو كميزان الدنيا له قَصَبَةٌ وَعَمُودٌ وَكِفَّتَانِ كِفَّةٌ لِلْحَسَنَاتِ وَكِفَّةٌ لِلسَّيِّئَاتِ تُوزَنُ بِهِ الْأَعْمَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، والذي يتولى وزنها جبريل وميكائيل، وما يُوزَنُ إِنَّمَا هُوَ الصَّحَائِفُ الَّتِي كُتِبَ عَلَيْهَا الْحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ، فَمَنْ رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّجَاةِ، وَمَنْ تَسَاوَتْ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّجَاةِ أَيْضًا وَلَكِنَّهُ أَقَلُّ رُبَّةً مِنَ الطَّبَقَةِ الْأُولَى وَأَرْفَعُ مِنَ الثَّالِثَةِ، وَمَنْ رَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ فَهُوَ تَحْتَ مَشِيئَةِ اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ. وَأَمَّا الْكَافِرُ فَتَرْجَحُ كِفَّةُ سَيِّئَاتِهِ لَا غَيْرَ لِأَنَّهُ لَا حَسَنَاتَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ لِأَنَّهُ أُطْعِمَ بِحَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا.

الثواب والعقاب

الثَّوَابُ عِنْدَ أَهْلِ الْحَقِّ لَيْسَ بِحَقٍّ لِلطَّائِعِينَ وَاجِبٌ عَلَى اللَّهِ، وَإِنَّمَا هُوَ فَضْلٌ مِنْهُ وَهُوَ الْجَزَاءُ الَّذِي يُجْزَى بِهِ الْمُؤْمِنُ مِمَّا يَسْرُهُ فِي الْآخِرَةِ. وَالْعِقَابُ لَا يَجِبُ عَلَى اللَّهِ أَيْضًا إِيقَاعُهُ لِلْعَصَاةِ، وَإِنَّمَا هُوَ عَذْلٌ مِنْهُ، وَهُوَ مَا يَسُوُّ الْعَبْدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وهُوَ عَلَى قِسْمَيْنِ: أَكْبَرُ وَأَصْغَرُ، فَالْعِقَابُ الْأَكْبَرُ هُوَ دُخُولُ النَّارِ وَالْعِقَابُ الْأَصْغَرُ مَا سِوَى ذَلِكَ كَأَذَى حَرِّ الشَّمْسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَإِنَّمَا تُسَلِّطُ عَلَى الْكُفَّارِ فَيَعْرِقُونَ حَتَّى يَصِلَ عَرَقُ أَحَدِهِمْ إِلَى فِيهِ وَلَا يَتَجَاوَزُ عَرَقُ هَذَا الشَّخْصِ إِلَى شَخْصٍ آخَرَ بَلْ يَقْتَصِرُ عَلَيْهِ

حَتَّى يَقُولَ الْكَافِرُ مِنْ شِدَّةِ مَا يُقَاسِي مِنْهَا: رَبِّ أَرْخِنِي وَلَوْ إِلَى النَّارِ، وَيَكُونُ الْمُؤْمِنُونَ الْأَتْقِيَاءُ تِلْكَ السَّاعَةَ تَحْتَ ظِلِّ الْعَرْشِ، وَهَذَا مَعْنَى الْحَدِيثِ: "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ"، أَيِ فِي ظِلِّ عَرْشِهِ.

الصَّراطُ

وَالصَّراطُ حَقٌّ، وَهُوَ جِسْرٌ عَرِيضٌ مَمْدُودٌ عَلَى جَهَنَّمَ تَرْدُ عَلَيْهِ الْخَلَائِقُ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَرِدُهُ وَرُودَ دُخُولٍ وَهُمْ الْكُفَّارُ وَبَعْضُ عُصَاةِ الْمُسْلِمِينَ، أَيِ يَزِلُّونَ مِنْهُ إِلَى جَهَنَّمَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَرِدُهُ وَرُودَ مُرُورٍ فِي هَوَائِهِ، فَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَمُرُّ كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَطَرْفَةِ عَيْنٍ، وَهُوَ مَحْمُولٌ عَلَى ظَاهِرِهِ بَعِيرٌ تَأْوِيلٍ، وَأَحَدُ طَرَفَيْهِ فِي الْأَرْضِ الْمَمْدَلَّةِ وَالْآخَرُ فِيمَا يَلِي الْجَنَّةَ، وَقَدْ وَرَدَ فِي صِفَتِهِ أَنَّهُ "دَخَضٌ مَزَلَّةٌ".

وَمِمَّا وَرَدَ أَنَّهُ أَحَدُ مِنَ السَّيْفِ وَأَدْقُ مِنَ الشَّعْرَةِ، كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ: "بَلَغَنِي أَنَّهُ أَدْقُ مِنَ الشَّعْرَةِ وَأَحَدُ مِنَ السَّيْفِ" وَلَمْ يَرِدْ مَرْفُوعًا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ ظَاهِرُهُ بَلْ هُوَ عَرِيضٌ وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِذَلِكَ أَنَّ خَطَرَهُ عَظِيمٌ، فَإِنَّ يُسْرَ الْجَوَازِ عَلَيْهِ وَعُسْرُهُ عَلَى قَدْرِ الطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِي وَلَا يَعْلَمُ حُدُودَ ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَدْ وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ. مَعْنَاهُ أَنَّ أَعْمَالَهُمْ تَصِيرُ لَهُمْ قُوَّةَ السَّيْرِ.

الْحَوْضُ

وَالْحَوْضُ حَقٌّ، وَهُوَ مَكَانٌ أَعَدَّ اللَّهُ فِيهِ شَرَابًا لِأَهْلِ الْجَنَّةِ يَشْرَبُونَ مِنْهُ قَبْلَ دُخُولِ الْجَنَّةِ وَبَعْدَ مُجَاوَزَةِ الصَّراطِ، فَلِنَبِيِّنَا حَوْضٌ تَرْدُهُ أُمَتُهُ فَقَطْ لَا تَرْدُهُ أُمَّمٌ غَيْرُهُ طَوْلُهُ مَسِيرَةُ شَهْرٍ وَعَرْضُهُ كَذَلِكَ، وَأَنبِيَّتُهُ كَعَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ، شَرَابُهُ أَيْبُضٌ مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ وَأَطْيَبُ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ.

وقد أعدَّ الله لكلِّ نبيٍّ حوضًا وأكبرُ الأحواضِ حوضُ نبيِّنا محمدٍ ﷺ.

صفة الجنة

والجنةُ حقٌّ فيجبُ الإيمانُ بها وأنها مخلوقةُ الآن كما يفهم ذلك من القرآن والحديث الصحيح، وهي فوق السماء السابعة ليست متصلةً بها، وسقفها عرش الرحمن، وأهلها على صورة أبيهم ءادم ستون ذراعًا طولًا في سبعة أذرع عرضًا جميلو الصورة، جردُّ مُردُّ في عمرٍ ثلاثة وثلاثين عامًا، خالدون فيها لا يخرجون منها أبدًا. وقد صحَّ الحديث بأن أهل الجنة على صورة أبيهم ءادم ستون ذراعًا في السماء في سبعة أذرع عرضًا. وقال رسول الله ﷺ في وصفها: «هي ورب الكعبة نورٌ يتلألُ وريحانةٌ تهتزُّ، وقصرٌ مشيدٌ ونهرٌ مطردٌ، وفاكهةٌ كثيرةٌ نصيجةٌ، وزوجةٌ حسناء جميلةٌ، وحُللٌ كثيرةٌ في مقامٍ أبديٍّ في حبرةٍ ونضرةٍ» رواه ابنُ حبان.

صفة جهنم

والنارُ حقٌّ، فيجبُ الإيمانُ بها وبأنها مخلوقةُ الآن، كما يفهم ذلك من الآيات والأحاديث الصحيحة، وهي مكانٌ أعدَّهُ الله لعذابِ الكفار الذي لا ينتهي أبدًا وبعضِ عصاةِ المسلمين، ومكانها تحت الأرض السابعة من غير أن تكون متصلةً بها. ويريدُ الله في حجم الكافر في النار ليزدادَ عذابًا حتى يكونَ ضرُّه كجبلٍ أُحُدٍ. وهو خالدٌ في النار أبدًا لا يموتُ فيها ولا يحيا أي حياةً فيها راحة، ليسَ لهم فيها طعامٌ إلا من ضريعٍ، وشرابُهُم من الماءِ الحارِّ المُتناهي الحرارة.

وَأَمَّا كَوْنُ الْجَنَّةِ فَوْقَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَذَلِكَ ثَابِتٌ فِيمَا صَحَّ مِنَ الْحَدِيثِ، وَهُوَ قَوْلُهُ ﷺ «وَفَوْقَهُ» يَعْنِي الْفَرْدَوْسَ «عَرْشُ الرَّحْمَنِ»، وَأَمَّا كَوْنُ جَهَنَّمَ تَحْتَ الْأَرْضِ السَّابِعَةِ فَقَدْ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ: إِنَّ ذَلِكَ جَاءَتْ فِيهِ رَوَايَاتٌ صَحِيحَةٌ.

الشَّفَاعَةُ

وَالشَّفَاعَةُ حَقٌّ، وَهِيَ سُؤَالُ الْخَيْرِ مِنَ الْغَيْرِ لِلْغَيْرِ، فَيَشْفَعُ النَّبِيُّونَ وَالْعُلَمَاءُ الْعَامِلُونَ وَالشُّهَدَاءُ وَالْمَلَائِكَةُ، وَيَشْفَعُ نَبِيُّنَا لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِهِ. فَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي» رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ. أَيِ غَيْرِ أَهْلِ الْكِبَائِرِ لَيْسُوا بِحَاجَةٍ لِلشَّفَاعَةِ، وَتَكُونُ لِبَعْضِهِمْ قَبْلَ دُخُولِهِمُ النَّارَ وَلِبَعْضٍ بَعْدَ دُخُولِهِمْ قَبْلَ أَنْ تَمُضِيَ الْمُدَّةُ الَّتِي يَسْتَحِقُّونَ بِمَعَاصِيهِمْ، وَلَا تَكُونُ لِلْكَفَّارِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرْضَى﴾ [سورة الأنبياء: ٢٨] وَأَوَّلُ شَافِعٍ يَشْفَعُ هُوَ النَّبِيُّ ﷺ.

الرُّوحُ

يَجِبُ الْإِيمَانُ بِالرُّوحِ وَهِيَ جِسْمٌ لَطِيفٌ لَا يَعْلَمُ حَقِيقَتَهُ إِلَّا اللَّهُ. وَقَدْ أَجْرَى اللَّهُ الْعَادَةَ أَنْ تَسْتَمِرَّ الْحَيَاةُ فِي أَجْسَامِ الْمَلَائِكَةِ وَالْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْبَهَائِمِ مَا دَامَتْ تِلْكَ الْأَجْسَامُ اللَّطِيفَةُ مُجْتَمِعَةً مَعَهَا، وَتُفَارِقُهَا إِذَا فَارَقَتْهَا تِلْكَ الْأَجْسَامُ، وَهِيَ حَادِثَةٌ لَيْسَتْ قَدِيمَةً، فَمَنْ قَالَ إِنَّهَا قَدِيمَةٌ لَيْسَتْ مَخْلُوقَةً فَقَدْ كَفَرَ. وَكَذَلِكَ مَنْ قَالَ الْبَهَائِمُ لَا أَرْوَاحَ لَهَا كَمَا قَالَ ذَلِكَ مُحَمَّدٌ مُتَوَلِّي الشَّعْرَاوِي^(١) فِي كِتَابَيْهِ التَّفْسِيرِ وَالْفَتَاوَى. وَذَلِكَ تَكْذِيبٌ لِلْقُرْآنِ وَإِنْكَارٌ لِلْعِيَانِ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا أَلُوْهُمُوسُ وَهُنَّ حُشِرَتِ﴾ [سورة التَّكْوِيْرِ]. وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ

(١) انظر كتابه الفتاوى (١/٢١٨).

ﷺ: «لَتُؤَدَّنَ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجُلُحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

بَيَانُ أَنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ شَامِلَةٌ فِي الدُّنْيَا لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ خَاصَّةً بِالْمُؤْمِنِينَ فِي الْآخِرَةِ

وَاللَّهُ تَعَالَى يَرْحَمُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي الدُّنْيَا وَسِعَتْ رَحْمَتُهُ كُلًّا، أَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَرَحْمَتُهُ خَاصَّةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ ﴿١٥٦﴾ [سورة الأعراف].

أَيَّ وَسِعَتْ فِي الدُّنْيَا كُلَّ مُسْلِمٍ وَكَافِرٍ، قَالَ: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ ﴿١٥٦﴾ أَيَّ فِي الْآخِرَةِ، ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ ﴿١٥٦﴾، أَيَّ أَخْصُصُهَا لِمَنْ اتَّقَى الشِّرْكَ وَسَائِرَ أَنْوَاعِ الْكُفْرِ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَذَى أَصْحَابِ النَّارِ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٥٠﴾ [سورة الأعراف].

أَيَّ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْكَافِرِينَ الرِّزْقَ النَّافِعَ وَالْمَاءَ الْمُرْوِيَّ فِي الْآخِرَةِ. وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ أَضَاعُوا أَعْظَمَ حُقُوقِ اللَّهِ الَّذِي لَا بَدِيلَ لَهُ وَهُوَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الدُّخُولَ فِي الْإِسْلَامِ الَّذِي هُوَ أَفْضَلُ نِعَمِ اللَّهِ سَهْلًا، وَذَلِكَ بِالنُّطْقِ بِالشَّهَادَتَيْنِ بَعْدَ مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.

وَجَعَلَ الْكُفْرَ سَهْلًا فَكَلِمَةً وَاحِدَةً تَدُلُّ عَلَى الْاسْتِخْفَافِ بِاللَّهِ أَوْ شَرِيعَتِهِ تُخْرِجُ قَائِلَهَا مِنَ الْإِيمَانِ، وَتَوَقُّعُهُ فِي الْكُفْرِ الَّذِي هُوَ أَسْوَأُ الْأَحْوَالِ حَتَّى يَكُونَ عِنْدَ اللَّهِ أَحَقَرَّ مِنَ الْحَشَرَاتِ وَالْوُحُوشِ، سَوَاءٌ تَكَلَّمَ بِهَا جَادًّا أَوْ مَازِحًا أَوْ غَضْبَانًا. وَقَدْ شُرِّحَ ذَلِكَ فِي كُتُبِ الْفِقْهِ فِي الْمَذَاهِبِ الْمُعْتَبَرَةِ وَحَكَّمُوا أَنَّ الْمُتَلَقِّظَ بِهَا يَكْفُرُ.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الأنفال].

البِدْعَةُ

البِدْعَةُ لُغَةً مَا أُحْدِثَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَابِقٍ، وَشَرْعًا الْمُحْدَثُ الَّذِي لَمْ يَنْصَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ وَلَا الْحَدِيثُ.

وَتَنَقَّسُمُ إِلَى قِسْمَيْنِ كَمَا يُفْهَمُ ذَلِكَ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»، أَي مَرْدُودٌ.

القِسْمُ الْأَوَّلُ: البِدْعَةُ الْحَسَنَةُ: وَتُسَمَّى السُّنَّةَ الْحَسَنَةَ، وَهِيَ الْمُحْدَثُ الَّذِي يُوَافِقُ الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ.

القِسْمُ الثَّانِي: البِدْعَةُ السَّيِّئَةُ: وَتُسَمَّى السُّنَّةَ السَّيِّئَةَ، وَهِيَ الْمُحْدَثُ الَّذِي يُخَالِفُ الْقُرْآنَ وَالْحَدِيثَ.

وَهَذَا التَّنْقِيسُ مَفْهُومٌ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمَلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمَلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

فَمِنْ الْقِسْمِ الْأَوَّلِ: الْاِحْتِفَالُ بِمَوْلِدِ النَّبِيِّ ﷺ فِي شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ، وَأَوَّلُ مَنْ أَحْدَثَهُ الْمَلِكُ الْمُظَفَّرُ مَلِكُ إِزْبِلَ فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ الْهَجْرِيِّ، وَتَنْقِيطُ التَّابِعِيِّ الْجَلِيلِ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ الْمُصْحَفَ، وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالتَّقْوَى، وَأَقَرَّ ذَلِكَ الْعُلَمَاءُ مِنْ مُحَدِّثِينَ وَغَيْرِهِمْ وَاسْتَحْسَنُوهُ وَلَمْ يَكُنْ مُنْقَطًا عِنْدَمَا أَمْلَى الرَّسُولُ عَلَى كَتَبَةِ الْوَحْيِ، وَكَذَلِكَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ لَمَّا كَتَبَ الْمَصَاحِفَ الْخَمْسَةَ أَوْ السِّتَةَ لَمْ تَكُنْ مُنْقَطَةً، وَمُنْذُ ذَلِكَ التَّنْقِيطُ لَمْ يَزَلْ

المُسْلِمُونَ عَلَى ذَلِكَ إِلَى الْيَوْمِ، فَهَلْ يُقَالُ فِي هَذَا إِنَّهُ بِدْعَةٌ ضَلَالَةٌ لِأَنَّ الرَّسُولَ لَمْ يَفْعَلْهُ؟ فَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَلْيَتْرَكُوا هَذِهِ الْمَصَاحِفَ الْمُنْقَطَةَ أَوْ لِيَكْشِطُوا هَذَا التَّنْقِيطَ مِنَ الْمَصَاحِفِ حَتَّى تَعُودَ مُجَرَّدَةً كَمَا فِي أَيَّامِ عُثْمَانَ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي دَاوُدَ صَاحِبُ السُّنَنِ فِي كِتَابِهِ الْمَصَاحِفِ: "أَوَّلُ مَنْ نَقَطَ الْمَصَاحِفَ يَحْيَى بْنُ يَعْمَرَ". اهـ، وَهُوَ مِنْ عُلَمَاءِ التَّابِعِينَ رَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ وَغَيْرِهِ.

وَمِنَ الْقِسْمِ الثَّانِي: الْمُحَدَّثَاتُ فِي الْاِعْتِقَادِ كِبِدْعَةِ الْمُعْتَرِلَةِ وَالْخَوَارِجِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الَّذِينَ خَرَجُوا عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فِي الْمُعْتَقَدِ، وَكِتَابَةِ (ص) أَوْ (صَلَعُم)^(١) بَعْدَ اسْمِ النَّبِيِّ بَدَلِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَقَدْ نَصَّ الْمُحَدِّثُونَ فِي كُتُبِ مُصْطَلَحِ الْحَدِيثِ عَلَى أَنَّ كِتَابَةَ الصَّادِ مُجَرَّدَةٌ مَكْرُوهٌ، وَمَعَ هَذَا لَمْ يُحَرِّمُوهَا.

فَمِنْ أَيْنَ لِهَؤُلَاءِ الْمُتَنَطِّعِينَ الْمُشَوِّشِينَ أَنْ يَقُولُوا عَنْ عَمَلِ الْمَوْلِدِ بِدْعَةٌ مُحَرَّمَةٌ وَعَنْ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ جَهْرًا عَقِبَ الْأَذَانِ إِنَّهُ بِدْعَةٌ مُحَرَّمَةٌ بِدَعْوَى أَنَّ الرَّسُولَ مَا فَعَلَهُ وَالصَّحَابَةَ لَمْ يَفْعَلُوهُ.

وَمِنْهُ تَحْرِيفُ اسْمِ اللَّهِ إِلَى ءَاهِ وَنَحْوِهِ كَمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الطَّرِيقِ فَإِنَّ هَذَا مِنَ الْبِدَعِ الْمُحَرَّمَةِ.

قَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "الْمُحَدَّثَاتُ مِنَ الْأُمُورِ ضَرِبَانِ، أَحَدُهُمَا مَا أُحْدِثَ مِمَّا يُخَالِفُ كِتَابًا أَوْ سُنَّةً أَوْ إجمَاعًا أَوْ أَثَرًا فَهَذِهِ الْبِدْعَةُ الضَّلَالَةُ، وَالثَّانِيَةُ مَا أُحْدِثَ مِنَ الْخَيْرِ وَلَا يُخَالِفُ كِتَابًا أَوْ سُنَّةً أَوْ إجمَاعًا وَهَذِهِ مُحَدَّثَةٌ غَيْرُ مَذْمُومَةٍ"، رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ بِالْإِسْنَادِ الصَّحِيحِ فِي كِتَابِهِ "مَنَاقِبُ الشَّافِعِيِّ".

(١) وَكِتَابَةُ (صَلَعُم) بَعْدَ اسْمِ النَّبِيِّ ﷺ أَقْبَحُ مِنْ كِتَابَةِ (ص).

إثباتُ أَنَّ التَّوَسُّلَ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ جَائِزٌ

وَأَنَّهُ لَيْسَ شِرْكًا كَمَا تَقُولُ الْوَهَابِيَّةُ

اعْلَمْ أَنَّهُ لَا دَلِيلَ حَقِيقِيٍّ يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ جَوَازِ التَّوَسُّلِ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ فِي حَالِ الْغَيْبَةِ أَوْ بَعْدَ وَفَاتِهِمْ بِدَعْوَى أَنَّ ذَلِكَ عِبَادَةٌ لِعَبِيدِ اللَّهِ، لَأَنَّهُ لَيْسَ عِبَادَةٌ لِعَبِيدِ اللَّهِ مُجَرَّدُ النِّدَاءِ لِحَيٍّ أَوْ مَيِّتٍ وَلَا مُجَرَّدُ التَّعْظِيمِ وَلَا مُجَرَّدُ الاسْتِعَانَةِ بِعَبِيدِ اللَّهِ، وَلَا مُجَرَّدُ قَصْدِ قَبْرِ وَلِيٍّ لِلتَّبَرُّكِ، وَلَا مُجَرَّدُ طَلَبِ مَا لَمْ تَجْرِبْ بِهِ الْعَادَةُ بَيْنَ النَّاسِ، وَلَا مُجَرَّدُ صِغَةِ الاسْتِعَانَةِ بِعَبِيدِ اللَّهِ تَعَالَى، أَيْ لَيْسَ ذَلِكَ شِرْكًا لَأَنَّهُ لَا يَنْطَبِقُ عَلَيْهِ تَعْرِيفُ الْعِبَادَةِ عِنْدَ اللَّغَوِيِّينَ، لَأَنَّ الْعِبَادَةَ عِنْدَهُمُ الطَّاعَةُ مَعَ الْخُضُوعِ.

قَالَ الْأَزْهَرِيُّ الَّذِي هُوَ أَحَدُ كِبَارِ اللَّغَوِيِّينَ فِي كِتَابِ تَهْذِيبِ اللَّغَةِ نَقْلًا عَنِ الرَّجَّاحِ الَّذِي هُوَ مِنْ أَشْهَرِهِمْ: الْعِبَادَةُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ الطَّاعَةُ مَعَ الْخُضُوعِ، وَقَالَ مِثْلَهُ الْفَرَّاءُ كَمَا فِي لِسَانِ الْعَرَبِ لابنِ مَنْظُورٍ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَفْصَى غَايَةِ الْخُشُوعِ وَالْخُضُوعِ، وَقَالَ بَعْضٌ: خَتَامُهُ التَّدَلُّلُ كَمَا يُفْهَمُ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ شَارِحِ الْقَامُوسِ مُرْتَضَى الرَّيْدِيِّ خَاتِمَةِ اللَّغَوِيِّينَ، وَهَذَا الَّذِي يَسْتَقِيمُ لُغَةً وَعُرْفًا. وَلَيْسَ مُجَرَّدُ التَّدَلُّلِ عِبَادَةً لِعَبِيدِ اللَّهِ وَإِلَّا لَكَفَرَ كُلُّ مَنْ يَتَدَلَّلُ لِلْمُلُوكِ وَالْعُظَمَاءِ. وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ لَمَّا قَدِمَ مِنَ الشَّامِ سَجَدَ لِرَسُولِ اللَّهِ، فَقَالَ الرَّسُولُ: "مَا هَذَا" فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي رَأَيْتُ أَهْلَ الشَّامِ يَسْجُدُونَ لِبَطَارِقَتِهِمْ^(١) وَأَسَافِقَتِهِمْ^(٢) وَأَنْتَ أَوْلَى بِذَلِكَ، فَقَالَ: «لَا تَفْعَلْ، لَوْ كُنْتُ أَمْرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا»، رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ وَابْنُ مَاجَةَ وَغَيْرُهُمَا. وَلَمْ يَقُلْ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَفَرْتَ، وَلَا قَالَ لَهُ أَشْرَكَتَ مَعَ أَنَّ سَجُودَهُ لِلنَّبِيِّ مَظْهَرٌ كَبِيرٌ مِنْ مَظَاهِرِ التَّدَلُّلِ.

(١) البَطْرِيقُ بِالْكَسْرِ مِنَ الرُّومِ كَالْقَائِدِ مِنَ الْعَرَبِ.

(٢) علماء النصارى يقال لهم أساقفة.

فَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ يُكْفَرُونَ الشَّخْصَ لِأَنَّهُ قَصَدَ قَبْرَ الرَّسُولِ أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ لِلتَّبَرُّكِ فَهُمْ جَهِلُوا مَعْنَى الْعِبَادَةِ، وَخَالَفُوا مَا عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ، لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ سَلَفًا وَخَلَفًا لَمْ يَزَالُوا يَزُورُونَ قَبْرَ النَّبِيِّ لِلتَّبَرُّكِ وَلَيْسَ مَعْنَى الزَّيَارَةِ لِلتَّبَرُّكِ أَنَّ الرَّسُولَ يَخْلُقُ لَهُمُ الْبَرَكَةَ بَلِ الْمَعْنَى أَنَّهُمْ يَرْجُونَ أَنْ يَخْلُقَ اللَّهُ لَهُمُ الْبَرَكَةَ بِزِيَارَتِهِمْ لِقَبْرِهِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ مَالِكِ الدَّارِ^(١) وَكَانَ خَازِنَ عُمَرَ قَالَ: أَصَابَ النَّاسَ قَحْطٌ^(٢) فِي زَمَانِ عُمَرَ^(٣) فَجَاءَ^(٤) رَجُلٌ إِلَى قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اسْتَسْقِ لَأُمْتِكَ فَإِنَّهُمْ قَدْ هَلَكُوا^(٥) فَأَتَى الرَّجُلُ فِي الْمَنَامِ فَقِيلَ لَهُ: أَقْرِئْ عُمَرَ السَّلَامَ^(٦) وَأَخْبِرْهُ أَنَّهُمْ يُسْقَوْنَ^(٧)، وَقُلْ لَهُ: عَلَيْكَ الْكَيْسَ الْكَيْسَ^(٨). فَأَتَى الرَّجُلُ عُمَرَ فَأَخْبَرَهُ، فَكَى عُمَرُ وَقَالَ: يَا رَبَّ مَا ءَالُو إِلَّا مَا عَجَزْتُ^(٩). وَقَدْ جَاءَ فِي تَفْسِيرِ هَذَا الرَّجُلِ أَنَّهُ بِلَالُ بْنُ الْحَارِثِ الْمُزَنِيُّ الصَّحَابِيُّ. فَهَذَا الصَّحَابِيُّ قَدْ قَصَدَ قَبْرَ الرَّسُولِ لِلتَّبَرُّكِ فَلَمْ يُكْرِ عَلَيْهِ عُمَرُ وَلَا غَيْرُهُ فَبَطَلَ دَعْوَى ابْنِ تَيْمِيَّةَ أَنَّ هَذِهِ الزَّيَارَةَ شَرَكِيَّةٌ. وَقَدْ قَالَ الْحَافِظُ وَلِيُّ الدِّينِ الْعِرَاقِيُّ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ مُوسَى قَالَ: "رَبِّ أَدْنِي مِنَ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ رَمِيَّةً بِحَجَرٍ"، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «وَاللَّهِ لَوْ أَنِّي عِنْدَهُ لَأَرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ

(١) قول بعض الوهابية إن مالك الدار مجهول يرده أن عمر لا يتخذ خازناً إلا خازناً ثقة، ومحاولتهم لتضعيف هذا الحديث بعدما صححه الحافظ ابن حجر لغو لا يلتفت إليه. ويقال لهذا المدعي: لا كلام لك بعد تصحيح أهل الحفظ أنت ليس لك في اصطلاح أهل الحديث حظ. في التصحيح والتضعيف فإنه خاص بالحافظ وأنت تعرف نفسك أنك بعيد من هذه المرتبة بعد الأرض من السماء فما حصل من هذا الصحابي استغاثه وتوسل. وبهذا الأثر يبطل أيضاً قول الوهابية إن الاستغاثه بالرسول بعد وفاته شرك. وقد قال الحافظ الفقيه اللغوي تقي الدين السبكي إن التوسل والاستغاثه والتوجه والتجوة بمعنى واحد ذكر ذلك في كتابه شفاء السقام الذي ألفه في الرد على ابن تيمية في إنكاره سنية السفر لزيارة قبر الرسول وتحريمه قصر الصلاة في ذلك السفر.

(٢) أي وقعت مجاعة، تسعة أشهر انقطع المطر عنهم.

(٣) أي في خلافته.

(٤) أي من الصحابة.

(٥) معناه اطلب من الله المطر لأمتك فإنهم قد هلكوا.

(٦) أي سلم لي عليه.

(٧) أي سيأتهم المطر، ثم سقاهم الله تعالى حتى تمت ذلك العام عام الفتي من شدة ما ظهر من الأعشاب وتمت المواشي حتى تفتت بالشحم.

(٨) أي عليك بالاجتهاد بالسعي في خدمة الأمة.

(٩) أي لا أقصر إلا ما عجزت، أي سافعل ما في وسعي لخدمة الأمة.

إلى جَنْبِ الطَّرِيقِ عِنْدَ الْكَثِيبِ الْأَحْمَرِ»: فِيهِ اسْتِحْبَابُ مَعْرِفَةِ قُبُورِ الصَّالِحِينَ لِزِيَارَتِهَا وَالْقِيَامِ بِحَقِّهَا اهـ.

وَقَالَ الْحَافِظُ الضَّيَّاءُ حَدَّثَنِي سَالِمُ التَّلَّ قَالَ: "مَا رَأَيْتُ اسْتِجَابَةَ الدُّعَاءِ أَسْرَعَ مِنْهَا عِنْدَ هَذَا الْقَبْرِ، وَحَدَّثَنِي الشَّيْخُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُونُسَ الْمَعْرُوفُ بِالْأَرْمَنِ أَنَّهُ زَارَ هَذَا الْقَبْرَ وَأَنَّهُ نَامَ فَرَأَى فِي مَنَامِهِ قُبَّةً عِنْدَهُ وَفِيهَا شَخْصٌ أَسْمَرٌ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَقَالَ لَهُ: أَنْتَ مُوسَى كَلِيمُ اللَّهِ أَوْ قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ، فَقَالَ: نَعَمْ، فَقُلْتُ: قُلْ لِي شَيْئًا، فَأَوْمَأَ إِلَيَّ بِأَرْبَعِ أَصَابِعٍ وَوَصَفَ طُولَهُنَّ، فَانْتَبَهْتُ وَلَمْ أَدْرِ مَا قَالَ، فَأَخْبَرْتُ الشَّيْخَ ذِيَالًا بِذَلِكَ فَقَالَ: يُؤَلِّدُ لَكَ أَرْبَعَةَ أَوْلَادٍ، فَقُلْتُ: أَنَا قَدْ تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً لَمْ أَقْرَبْهَا، فَقَالَ: تَكُونُ غَيْرُ هَذِهِ، فَتَزَوَّجْتُ أُخْرَى فَوَلَدَتْ لِي أَرْبَعَةَ أَوْلَادٍ". انْتَهَى.

وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ كَمَا قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ حَسَّانَ الْبَكْرِيَّ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَعُوذُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ أَنْ أَكُونَ كَوَافِدٍ عَادٍ، الْحَدِيثُ بِطَوِيلِهِ دَلِيلٌ يُبْطِلُ قَوْلَ الْوَهَابِيَّةِ: الْإِسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللَّهِ شِرْكٌ.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ سِوَى الْحَفَظَةِ يَكْتُبُونَ مَا يَسْقُطُ مِنْ وَرَقِ الشَّجَرِ فَإِذَا أَصَابَ أَحَدَكُمْ عَرَجَةٌ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ فَلْيُنَادِ أَعِينُوا عِبَادَ اللَّهِ»، رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ، وَقَالَ الْحَافِظُ الْهَيْثَمِيُّ: رَجَالُهُ ثِقَاتٌ.

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «حَيَاتِي خَيْرٌ لَكُمْ وَمَمَاتِي خَيْرٌ لَكُمْ تُحَدِّثُونَ وَيُحَدِّثُ لَكُمْ، وَوَفَاتِي خَيْرٌ لَكُمْ تُعْرِضُ عَلَيَّ أَعْمَالُكُمْ فَمَا رَأَيْتُ مِنْ خَيْرٍ حَمَدْتُ اللَّهَ عَلَيْهِ وَمَا رَأَيْتُ مِنْ شَرٍّ اسْتَغْفَرْتُ لَكُمْ»، رَوَاهُ الْبَزَّازُ وَرَجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ.

وَأَخْرَجَ الطَّبْرَانِيُّ فِي مُعْجَمِيهِ الْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ أَنَّ رَجُلًا كَانَ يَخْتَلِفُ - أَيْ يَتَرَدَّدُ - إِلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، فَكَانَ عُثْمَانُ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ وَلَا يَنْظُرُ فِي حَاجَتِهِ، فَلَقِيَ عُثْمَانَ بْنَ حُنَيْفٍ فَشَكَى إِلَيْهِ ذَلِكَ، فَقَالَ: ائْتِ الْمِيضَاءَ فَتَوَضَّأْ ثُمَّ صَلِّ رَكْعَتَيْنِ

ثُمَّ قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَتَوَجَّهُ بِكَ إِلَى رَبِّي فِي حَاجَتِي لَتُقْضَى لِي، ثُمَّ رُحَ حَتَّى أَرْوَحَ مَعَكَ. فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ ففَعَلَ مَا قَالَ، ثُمَّ أَتَى بَابَ عُثْمَانَ فَجَاءَ الْبَوَّابُ فَأَخَذَ بِيَدِهِ فَأَدْخَلَهُ عَلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ فَأَجْلَسَهُ عَلَى طَنْفِيسَتِهِ - أَيِ سَجَّادَتِهِ - فَقَالَ: مَا حَاجَتُكَ؟ فَذَكَرَ لَهُ حَاجَتَهُ، فَقَضَى لَهُ حَاجَتَهُ وَقَالَ: مَا ذَكَرْتُ حَاجَتَكَ حَتَّى كَانَتْ هَذِهِ السَّاعَةُ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ فَلَقِيَ عُثْمَانَ ابْنَ حُنَيْفٍ فَقَالَ: جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا، مَا كَانَ يَنْظُرُ فِي حَاجَتِي وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَيَّ حَتَّى كَلَّمْتَهُ فِيَّ، فَقَالَ عُثْمَانُ بْنُ حُنَيْفٍ: وَاللَّهِ مَا كَلَّمْتُهُ وَلَكِنْ شَهِدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ أَتَاهُ ضَرِيرٌ فَشَكَى إِلَيْهِ ذَهَابَ بَصَرِهِ، فَقَالَ: «إِنْ شِئْتَ صَبَرْتَ وَإِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ لَكَ»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ شَقَّ عَلَيَّ ذَهَابُ بَصَرِي وَإِنَّهُ لَيْسَ لِي قَائِدٌ فَقَالَ لَهُ: «أَنْتِ الْمِيضَاءُ فَتَوَضَّأْ وَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ قُلْ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ»، ففَعَلَ الرَّجُلُ مَا قَالَ، فَوَاللَّهِ مَا تَفَرَّقْنَا وَلَا طَالَ بِنَا الْمَجْلِسُ حَتَّى دَخَلَ عَلَيْنَا الرَّجُلُ وَقَدْ أَبْصَرَ كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِهِ ضُرٌّ قَطُّ.

قَالَ الطَّبْرَانِيُّ فِي كُلِّ مِنْ "مُعْجَمَيْهِ": وَالْحَدِيثُ صَحِيحٌ، وَالطَّبْرَانِيُّ مِنْ عَادَتِهِ أَنَّهُ لَا يُصَحِّحُ حَدِيثًا مَعَ اتِّسَاعِ كِتَابِهِ الْمُعْجَمِ الْكَبِيرِ، مَا قَالَ عَنْ حَدِيثٍ أَوْرَدَهُ وَلَوْ كَانَ صَحِيحًا: الْحَدِيثُ صَحِيحٌ، إِلَّا عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ، وَكَذَلِكَ أَخْرَجَهُ فِي الصَّغِيرِ وَصَحَّحَهُ. فَفِيهِ دَلِيلٌ أَنَّ الْأَعْمَى تَوَسَّلَ بِالنَّبِيِّ فِي غَيْرِ حَضْرَتِهِ بِدَلِيلٍ قَوْلِ عُثْمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ: "حَتَّى دَخَلَ عَلَيْنَا الرَّجُلُ"، وَفِيهِ أَنَّ التَّوَسُّلَ بِالنَّبِيِّ جَائِزٌ فِي حَالَةِ حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَمَاتِهِ فَبَطَلَ قَوْلُ ابْنِ تَيْمِيَّةَ: لَا يَجُوزُ التَّوَسُّلُ إِلَّا بِالْحَيِّ الْحَاضِرِ، وَكُلُّ شَرْطٍ لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَهُوَ بَاطِلٌ وَإِنْ كَانَ مِائَةً شَرْطٍ.

وَأَمَّا تَمَسُّكُ بَعْضِ الْوَهَابِيَّةِ لِدَعْوَى ابْنِ تَيْمِيَّةَ هَذِهِ فِي رَوَايَةِ حَدِيثِ التِّرْمِذِيِّ الَّذِي فِيهِ: «اللَّهُمَّ شَفِّعْنِي فِيَّ وَشَفِّعْنِي فِي نَفْسِي»، فَلَا يَفِيدُ أَنَّهُ لَا يُتَبَرَّكُ بِذَاتِ النَّبِيِّ، بَلِ التَّبَرُّكُ بِذَاتِ النَّبِيِّ إِجْمَاعٌ لَمْ يَخَالَفْهُ إِلَّا ابْنُ تَيْمِيَّةَ، وَالرَّسُولُ هُوَ الَّذِي قَالَ فِيهِ الْقَائِلُ:

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الْعَمَامُ بِوَجْهِهِ ثِمَالٌ^(١) الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ
أُورَدَهُ الْبُخَارِيُّ.

وَأَمَّا تَوْشُلُ عُمَرَ بِالْعَبَّاسِ بَعْدَ مَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَيْسَ لِأَنَّ الرَّسُولَ قَدْ مَاتَ، بَلْ كَانَ
لَأَجْلِ رِعَايَةِ حَقِّ قَرَابَتِهِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، بِدَلِيلِ قَوْلِ الْعَبَّاسِ حِينَ قَدَّمَهُ عُمَرُ: "اللَّهُمَّ إِنَّ
الْقَوْمَ تَوَجَّهُوا بِي إِلَيْكَ لِمَكَانِي^(٢) مِنْ نَبِيِّكَ"، فَتَبَيَّنَ بُطْلَانُ رَأْيِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ وَمَنْ تَبِعَهُ مِنْ
مُنْكَرِي التَّوَسُّلِ. رَوَى هَذَا الْأَثَرُ الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ كَمَا قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ.

وَيُسْتَأْنَسُ لَهُ أَيْضًا بِمَا رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَطَبَ النَّاسَ
فَقَالَ: "أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَرَى لِلْعَبَّاسِ مَا يَرَى الْوَلَدُ لِوَالِدِهِ، يُعَظِّمُهُ
وَيُفَخِّخُهُ وَيَبْرِئُ قَسَمَهُ، فَاقْتَدُوا أَيُّهَا النَّاسُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي عَمِّهِ الْعَبَّاسِ وَاتَّخِذُوهُ وَسِيلَةً
إِلَى اللَّهِ فِيمَا نَزَلَ بِكُمْ"، فَهَذَا يُوضِحُ سَبَبَ تَوْشُلِ عُمَرَ بِالْعَبَّاسِ.

فَلَا التَّفَاتَ بَعْدَ هَذَا إِلَى دَعْوَى بَعْضِ هَؤُلَاءِ الْمُشَوَّشِينَ أَنَّ الْحَدِيثَ الْمَذْكُورَ فِي إِسْنَادِهِ
أَبُو جَعْفَرٍ وَهُوَ رَجُلٌ بَجْهُولٍ، وَلَيْسَ كَمَا زَعَمُوا بَلْ أَبُو جَعْفَرٍ هَذَا هُوَ أَبُو جَعْفَرٍ
الْخَطْمِيُّ ثِقَةٌ، وَكَذَلِكَ دَعْوَى بَعْضِهِمْ وَهُوَ نَاصِرُ الدِّينِ الْأَلْبَانِيُّ أَنَّ مُرَادَ الطَّبْرَانِيِّ بِقَوْلِهِ:
"وَالْحَدِيثُ صَحِيحٌ" الْقَدْرُ الْأَصْلِيُّ وَهُوَ مَا فَعَلَهُ الرَّجُلُ الْأَعْمَى فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ
فَقَطْ، وَلَيْسَ مُرَادُهُ مَا فَعَلَهُ الرَّجُلُ أَيَّامَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ بَعْدَ وَفَاةِ الرَّسُولِ وَهَذَا مُرَدُّهُ،
لِأَنَّ عُلَمَاءَ الْمُصْطَلَحِ قَالُوا: الْحَدِيثُ يُطْلَقُ عَلَى الْمَرْفُوعِ إِلَى النَّبِيِّ وَالْمَوْقُوفِ عَلَى
الصَّحَابَةِ، أَيْ أَنَّ كَلَامَ الرَّسُولِ يُسَمَّى حَدِيثًا وَقَوْلَ الصَّحَابِيِّ يُسَمَّى حَدِيثًا، وَلَيْسَ
لَفْظُ الْحَدِيثِ مَقْصُورًا عَلَى كَلَامِ النَّبِيِّ فَقَطْ فِي اصْطِلَاحِهِمْ، وَهَذَا الْمُمَوِّهُ كَلَامُهُ لَا
يُؤَافِقُ الْمُقَرَّرَ فِي عِلْمِ الْمُصْطَلَحِ فَلْيَنْظُرْ مَنْ شَاءَ فِي كِتَابِ تَدْرِيبِ الرَّاوي وَالْإِفْصَاحِ

(١) أي غيائهم.

(٢) أي لمكانتي عنده.

وغيرهما من كُتُبِ الْمُصْطَلَحِ، فَإِنَّ الْأَلْبَانِيَّ لَمْ يَجْزِهِ إِلَى هَذِهِ الدَّعْوَى إِلَّا شِدَّةَ تَعَصُّبِهِ
لَهُوَاهُ وَعَدَمَ مَبَالَاتِهِ بِمُخَالَفَةِ الْعُلَمَاءِ كَسَلَفِهِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ.

أَمَّا حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ
وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ» فَلَيْسَ فِيهِ دَلِيلٌ أَيْضًا عَلَى مَنَعِ التَّوَسُّلِ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ
لَأَنَّ الْحَدِيثَ مَعْنَاهُ أَنَّ الْأَوَّلَى بِأَنْ يُسْأَلَ وَيُسْتَعَانَ بِهِ اللَّهُ تَعَالَى، وَلَيْسَ مَعْنَاهُ لَا تَسْأَلُ
غَيْرَ اللَّهِ وَلَا تَسْتَعِنْ بِغَيْرِ اللَّهِ. نَظِيرُ ذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ: «لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا وَلَا يَأْكُلْ
طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيًّا»، فَكَمَا لَا يُفْهَمُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ عَدَمُ جَوَازِ صُحْبَةِ غَيْرِ الْمُؤْمِنِ
وَإِطْعَامِ غَيْرِ التَّقِيِّ، وَإِنَّمَا يُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّ الْأَوَّلَى فِي الصُّحْبَةِ الْمُؤْمِنُ وَأَنَّ الْأَوَّلَى بِالْإِطْعَامِ
هُوَ التَّقِيُّ، كَذَلِكَ حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ لَا يُفْهَمُ مِنْهُ إِلَّا الْأَوَّلَوِيَّةُ وَأَمَّا التَّحْرِيمُ الَّذِي يَدْعُوهُ
فَلَيْسَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ.

وَلَا فَرْقَ بَيْنَ التَّوَسُّلِ وَالْإِسْتِغَاثَةِ، فَالتَّوَسُّلُ يُسَمَّى اسْتِغَاثَةً كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ الْبُخَارِيِّ
أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الشَّمْسَ تَذْنُو يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَبْلُغَ الْعَرَقُ نِصْفَ الْأُذُنِ
فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ اسْتَغَاثُوا بِآدَمَ ثُمَّ مُوسَى ثُمَّ بِمُحَمَّدٍ ﷺ» الْحَدِيثُ فِي رِوَايَةِ عَبْدِ اللَّهِ
ابْنِ عَمْرٍو لِحَدِيثِ الشَّفَاعَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَفِي رِوَايَةِ أَنَسٍ رُويَ بِلَفْظِ الْإِسْتِشْفَاعِ وَكَلَّمَا
الرَّوَايَتَيْنِ فِي الصَّحِيحِ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْإِسْتِشْفَاعَ وَالْإِسْتِغَاثَةَ بِمَعْنَى وَاحِدٍ فَسَمَّى
الرَّسُولُ ﷺ هَذَا الطَّلَبَ مِنْ آدَمَ أَنْ يَشْفَعَ لَهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ اسْتِغَاثَةً.
ثُمَّ الرَّسُولُ سَمَّى الْمَطَرَ مُغِيثًا.

فَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ بِالْإِسْنَادِ الصَّحِيحِ أَنَّ الرَّسُولَ قَالَ: «اللَّهُمَّ اسْقِنَا غَيْثًا مُغِيثًا
مَرِيحًا نَافِعًا غَيْرَ ضَارٍّ عَاجِلًا غَيْرَ آجِلٍ»، فَالرَّسُولُ سَمَّى الْمَطَرَ مُغِيثًا لِأَنَّهُ يُنْقِذُ مِنَ
الشَّدَةِ بِإِذْنِ اللَّهِ، كَذَلِكَ النَّبِيُّ وَالْوَلِيُّ يُنْقِذَانِ مِنَ الشَّدَةِ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى.

التَّبَرُّكُ بِآثَارِ النَّبِيِّ

أَعْلَمَ أَنَّ الصَّحَابَةَ رَضَوُا اللَّهَ عَلَيْهِمْ كَانُوا يَتَبَرَّكُونَ بِآثَارِ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَمَاتِهِ وَلَا زَالَ الْمُسْلِمُونَ بَعْدَهُمْ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا عَلَى ذَلِكَ، وَجَوَّازُ هَذَا الْأَمْرِ يُعْرِفُ مِنْ فِعْلِ النَّبِيِّ ﷺ وَذَلِكَ أَنَّهُ ﷺ قَسَمَ شَعْرَهُ حِينَ حَلَقَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ وَأُظْفَارُهُ.

أَمَّا اقْتِسَامُ الشَّعْرِ فَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ، فِي لَفْظٍ مُسَلِّمٍ أَنَّهُ قَالَ لَمَّا رَمَى ﷺ الْجُمُرَةَ وَنَحَرَ نُسُكَهُ وَحَلَقَ نَاولَ الْحَالِقِ شِقَّةَ الْأَيْمَنِ فَحَلَقَ ثُمَّ دَعَا أَبَا طَلْحَةَ الْأَنْصَارِيَّ فَأَعْطَاهُ ثُمَّ نَاولَهُ الشَّقَّ الْأَيْسَرَ فَقَالَ: «اخْلُقْ»، فَحَلَقَ فَأَعْطَاهُ أَبَا طَلْحَةَ فَقَالَ: «اقْسِمْهُ بَيْنَ النَّاسِ». وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ أَيْضًا: فَبَدَأَ بِالشَّقِّ الْأَيْمَنِ فَوَزَعَهُ الشَّعْرَةَ وَالشَّعْرَتَيْنِ بَيْنَ النَّاسِ ثُمَّ قَالَ بِالْأَيْسَرِ فَصَنَعَ مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ قَالَ: «هَاهُنَا أَبُو طَلْحَةَ» فَدَفَعَهُ إِلَى أَبِي طَلْحَةَ.

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى لِمُسْلِمٍ أَيْضًا أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ لِلْحَالِقِ "هَا"، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى الْجَانِبِ الْأَيْمَنِ فَقَسَمَ شَعْرَهُ بَيْنَ مَنْ يَلِيهِ، ثُمَّ أَشَارَ إِلَى الْحَالِقِ إِلَى الْجَانِبِ الْأَيْسَرِ فَحَلَقَهُ فَأَعْطَاهُ أُمَّ سُلَيْمٍ، فَمَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّهُ وَزَعَ بِنَفْسِهِ بَعْضًا بَيْنَ النَّاسِ الَّذِينَ يَلُونَهُ وَأَعْطَى بَعْضًا لِأَبِي طَلْحَةَ لِيُوزَعَهُ فِي سَائِرِهِمْ وَأَعْطَى بَعْضًا أُمَّ سُلَيْمٍ فَفِيهِ التَّبَرُّكُ بِآثَارِ الرَّسُولِ، فَقَدْ قَسَمَ ﷺ شَعْرَهُ لِيَتَبَرَّكُوا بِهِ وَلِيَسْتَشْفِعُوا إِلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ مِنْهُ وَيَتَقَرَّبُوا بِذَلِكَ إِلَيْهِ، قَسَمَ بَيْنَهُمْ لِيَكُونَ بَرَكَةً بَاقِيَةً بَيْنَهُمْ وَتَذَكِيرَةً لَهُمْ. ثُمَّ تَبَعَ الصَّحَابَةُ فِي خُطَّتِهِمْ فِي التَّبَرُّكِ بِآثَارِهِ ﷺ مِنْ أَسْعَدَهُ اللَّهُ وَتَوَارَدَ ذَلِكَ الْخَلْفُ عَنِ السَّلَفِ.

وَأَمَّا اقْتِسَامُ الْأُظْفَارِ فَأَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَلَّمَ أُظْفَارَهُ وَقَسَمَهَا بَيْنَ النَّاسِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لِيَأْكُلَهَا النَّاسُ بَلْ لِيَتَبَرَّكُوا بِهَا.

أَمَّا جُبَّتُهُ ﷺ فَقَدْ أَخْرَجَ مُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ عَنْ مَوْلَى أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ قَالَ: "أَخْرَجْتُ إِلَيْنَا جُبَّةً طَيَالِسَةً كِسْرَوَانِيَّةَ لَهَا لَبَنَةٌ دِيْبَاجٍ وَفَرَجِيهَا مَكْفُوفَانِ، وَقَالَتْ: هَذِهِ جُبَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَتْ عِنْدَ عَائِشَةَ، فَلَمَّا قُبِضَتْ قَبِضْتُهَا وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَلْبَسُهَا فَنَحْنُ نَغْسِلُهَا لِلْمَرْضَى نَسْتَشْفِي بِهَا"، وَفِي رَوَايَةٍ: "نَغْسِلُهَا لِلْمَرِيضِ مِنَّا".

وَعَنْ حَنْظَلَةَ بْنِ حَظِيمٍ قَالَ: "وَقَدْتُ مَعَ جَدِّي حَظِيمٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي بَيْنَ ذَوِي لَحَى وَغَيْرِهِمْ وَهَذَا أَصْغَرُهُمْ فَأَذْنَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَسَحَ رَأْسِي، وَقَالَ: «بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ»، قَالَ الذِّيَالُ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ حَنْظَلَةَ يُؤْتَى بِالرَّجُلِ الْوَارِمِ وَجْهَهُ أَوْ الشَّاةِ الْوَارِمِ ضَرْعُهَا، فيقول: بِسْمِ اللَّهِ عَلَى مَوْضِعِ كَفِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فيمسحُ فيذهبُ الورمُ"، رواه الطبرانيُّ في الأوسطِ والكبيرِ بنحوه، وأحمدُ في حديثٍ طويلٍ ورجالٌ أحمدٌ ثقاتٌ.

وَعَنْ ثَابِتٍ قَالَ: "كُنْتُ إِذَا أَتَيْتُ أُنْسَا يُخْبِرُ بِمَكَانِي فَأَدْخُلُ عَلَيْهِ فَأَخْذُ بِيَدَيْهِ فَأَقْبِلُهُمَا وَأَقُولُ: بِأَبِي هَاتَانِ الْيَدَانِ اللَّتَانِ مَسَّتَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَقْبَلُ عَيْنَيْهِ وَأَقُولُ بِأَبِي هَاتَانِ الْعَيْنَانِ اللَّتَانِ رَأَتَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ". رواه أبو يَعْلَى وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ غَيْرُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ الْمَقْدِمِيِّ وَهُوَ ثَقَّةٌ.

وَعَنْ دَاوُدَ بْنِ أَبِي صَالِحٍ قَالَ: أَقْبَلَ مَرَوَانُ^(١) يَوْمًا^(٢) فَوَجَدَ رَجُلًا وَاضِعًا وَجْهَهُ عَلَى الْقَبْرِ فَقَالَ: أَتَدْرِي مَا تَصْنَعُ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ فَإِذَا هُوَ أَبُو أَيُّوبَ^(٣) فَقَالَ: نَعَمْ جِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ آتِ الْحَجَرَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا تَبْكُوا عَلَى الدِّينِ إِذَا وَلِيَهُ أَهْلُهُ وَلَكِنْ ابْكُوا عَلَيْهِ إِذَا وَلِيَهُ غَيْرُ أَهْلِهِ»^(٤) رواه أحمدُ والطبرانيُّ في الكبيرِ والأوسطِ.

(١) يعني مروان بن الحكم.

(٢) وكان حاكمًا على المدينة من قبل معاوية، ولم ير رسول الله كما قال البخاري.

(٣) واسمه خالد بن زيد.

(٤) معناه أنت من غير أهله يا مروان، لست أهلاً لتولي الأمر.

وروى البيهقي في دلائل النبوة والحاكم في مستدركه وغيرهما بالإسناد أن خالد بن الوليد فَقَدَ قَلَنْسُوَةَ له يومَ اليرموك فقال: اطلبوها، فلم يجدوها، ثم طلبوها فوجدوها، فقال خالد: اعتمر رسول الله ﷺ فحلق رأسه فابتدر الناس جوانب شعره فسبقتهم إلى ناصيته فجعلتها في هذه القلنسوة فلم أشهد قتالا وهي معي إلا رزقت النصر. وهذه القصة صحيحة كما ذكر ذلك الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي في تعليقه على المطالب العالية^(٥) فقال "قال البوصيري رواه أبو يعلى بسند صحيح وقال الهيثمي رواه الطبراني وأبو يعلى بنحوه ورجاهما رجال الصحيح" اهـ.

فلا التفات بعد هذا إلى دعوى منكري التوسل والتبرك بآثاره الشريفة ﷺ.

الاجتهاد والتقليد

الاجتهاد هو استخراج الأحكام التي لم يرد فيها نص صريح لا يحتمل إلا معنى واحداً. فالجتهاد من له أهلية ذلك بأن يكون حافظاً لآيات الأحكام وأحاديث الأحكام ومعرفة أسانيدها ومعرفة أحوال رجال الإسناد. ومعرفة النسخ والمنسوخ والعام والخاص والمطلق والمقتيد، ومع إتقان اللغة العربية بحيث إنه يحفظ مدلولات ألفاظ النصوص على حسب اللغة التي نزل بها القرآن. ومعرفة ما أجمع عليه المجتهدون وما اختلفوا فيه لأنه إذا لم يعلم ذلك لا يؤمن عليه أن يخرق الإجماع أي إجماع من كان قبله. ويشتراط فوق ذلك شرط وهو ركن عظيم في الاجتهاد وهو فقه النفس أي قوة الفهم والإدراك.

وتشترط العدالة وهي السلامة من الكبائر ومن المداومة على الصغائر بحيث تغلب على حسناته من حيث العدد.

(٥) انظر الكتاب (ج ١/ ص ٩٠).

وأما المقلد فهو الذي لم يصل إلى هذه المرتبة.

والدليل على أن المسلمين على هاتين المرتبتين قوله ﷺ: «نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأذاها كما سمعها، فرب مبلغ لا فقه عنده». رواه الترمذي وابن حبان. الشاهد في الحديث قوله: «فرب مبلغ لا فقه عنده»، وفي رواية: «ورب مبلغ أوعى من سامع»، فإنه يفهمنا أن من يسمع الحديث من الرسول من حظه أن يروي ما سمعه لغيره ويكون هو فهمه أقل من فهم من يبلغه بحيث إن من يبلغه هذا السامع يستطيع من قوة قريحته أن يستخرج منه أحكاماً ومسائل - ويسمى هذا الاستنباط - والذي سمع ليس عنده هذه القريحة القوية إنما يفهم المعنى الذي هو قريب من اللفظ. من هنا يعلم أن بعض الصحابة يكون أقل فهماً ممن يسمع منهم حديث رسول الله. وفي لفظ لهذا الحديث: «فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»، وهاتان الروايتان في الترمذي وابن حبان.

وهذا المجتهد هو مؤرد قوله ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر» رواه البخاري، وإنما خص رسول الله في هذا الحديث الحاكم بالذكر لأنه أخوج إلى الاجتهاد من غيره فقد مضى مجتهدون في السلف مع كونهم حاكمين كالخلفاء الستة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن بن علي وعمر بن عبد العزيز وشريح القاضي.

وقد عدَّ علماء الحديث الذين ألفوا في كتب مصطلح الحديث المفتين في الصحابة أقل من عشرة^(١) قيل: نحو ستة، وقال بعض العلماء: نحو مائتين منهم بلغ رتبة الاجتهاد، وهذا القول هو الأصح. فإذا كان الأمر في الصحابة هكذا فمن أين يصح لكل مسلم يستطيع أن يقرأ القرآن ويطالع في بعض الكتب أن يقول أولئك رجال ونحن رجال

(١) كما في كتب المصطلح كتدريبات الراوي للسيوطي.

فليس علينا أن نقلدهم، وقد ثبت أنّ أكثر السلف كانوا غير مجتهدين بل كانوا مُقلّدين للمجتهدين فيهم، ففي صحيح البخاريّ أن رجلاً كان أجيرًا لرجل فزنى بامرأته فسأل أبوه فقيل له: إنّ على ابنك مائة شاة وأمة، ثمّ سأل أهل العلم فقالوا له: إنّ على ابنك جلد مائة وتغريب عام، فجاء إلى الرسول ﷺ مع زوج المرأة فقال: يا رسول الله إنّ ابني هذا كان عسيّفًا - أي أجيرًا - على هذا وزنى بامرأته فقال لي ناس: على ابنك الرّحم ففديت ابني منه بمائة من الغنم ووليدة، ثم سأل أهل العلم فقالوا: إنّما على ابنك جلد مائة وتغريب عام، فقال رسول الله ﷺ: «لأقضينّ بينكما بكتاب الله، أمّا الوليدة والغنم فردّ عليه، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام»^(٢).

فهذا الرجل مع كونه من الصحابة سأل أناسًا من الصحابة فأخطأوا الصواب ثم سأل علماء منهم ثم أفتاه الرسول بما يوافق ما قاله أولئك العلماء، فإذا كان الرسول أفهمنا أنّ بعض من كانوا يسمعون منه الحديث ليس لهم فقه أي مقدرة على استخراج الأحكام من حديثه وإنما حظّهم أن يرووا عنه ما سمعوه مع كونهم يفهمون اللغة العربية الفصحى فما بال هؤلاء الغوغاء الذين يتجرّعون على قول: "أولئك رجال ونحن رجال"، أولئك رجال يعنون المجتهدين كالأئمة الأربعة.

وفي هذا المعنى ما أخرجه أبو داود من قصة الرجل الذي كانت برأسه شجة فأجنب في ليلة باردة فاستفتى من معه فقالوا له: اغتسل، فاغتسل فمات فأحبر رسول الله ﷺ فقال: «قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء العي السؤال» أي شفاء الجهل السؤال أي سؤال أهل العلم، وقال عليه الصلاة والسلام: «إنما كان يكفيه أن يتيّم ويعصب على جرحه خرقه ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده»

(٢) أي يخرج من بلده إلى مسافة القصر لمدة سنة.

الحديث رواه أبو داود وغيره، فإنه لو كان الاجتهاد يصح من مطلق المسلمين لما ذم رسول الله هؤلاء الذين أفتوه وليسوا من أهل الفتوى. ثم وظيفة المجتهد التي هي خاصة له القياس، أي أن يعتبر ما لم يرد به نص بما ورد فيه نص لشبهه بينهما.

فالحذر الحذر من الذين يحنون أتباعهم على الاجتهاد مع كون متبوعيههم بعيدين عن هذه الرتبة فهؤلاء يُخربون ويدعون أتباعهم إلى التخريب في أمور الدين. وشبهة هؤلاء أناس تعوّدوا في مجالسهم أن يؤزّعوا على الحاضرين تفسير آية أو حديث مع أنه لم يسبق لهم تلقى معتبر من أفواه العلماء. فهؤلاء المدعون شدوا عن علماء الأصول لأن علماء الأصول قالوا: "القياس وظيفة المجتهد" وخالفوا علماء الحديث أيضاً.

خاتمة

خلاصة ما مضى من الأبحاث أن من عرف الله ورسوله ونطق بالشهادة ولو مرة في العمر ورضي بذلك اعتقاداً فهو مسلم مؤمن. ومن عرف ونطق ولم يعتقد فليس بمسلم ولا بمؤمن عند الله، وأما عندنا فهو مسلم لحفاء باطنه علينا، وإن كان يتظاهر بالإسلام ويكره الإسلام باطناً أو يتردد في قلبه هل الإسلام صحيح أم لا فهو منافق كافر وهو داخل في قول الله تعالى: ﴿الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [سورة النساء: ١٤٥] فهو والكافر المعلن خالداً في النار مخلداً أبدياً.

وقول البعض: يصح إيمان الكافر بلا نطق مع التمكن قول باطل. وقال بعضهم: "من نشأ بين أبوين مسلمين يكفيه المعرفة والاعتقاد لصحة إسلامه وإيمانه لو لم ينطق بالمرّة".

ثُمَّ مَنْ صَحَّ لَهُ أَصْلُ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ وَلَوْ لَمْ يَقُمْ بِأَدَاءِ الْفَرَائِضِ الْعَمَلِيَّةِ كَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَصِيَامِ رَمَضَانَ وَلَمْ يَجْتَنِبِ الْمُحَرَّمَاتِ إِلَى أَنْ مَاتَ وَهُوَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ قَبْلَ أَنْ يَتُوبَ فَقَدْ نَجَا مِنَ الْخُلُودِ الْأَبَدِيِّ فِي النَّارِ، ثُمَّ قَسَمَ مِنْهُمْ يُسَاحِحُهُمُ اللَّهُ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ بِلا عَذَابٍ وَقَسَمَ مِنْهُمْ يَعَذِّبُهُمْ ثُمَّ يُخْرِجُهُمْ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُسَاحِحُهُ وَمَنْ لَا يُسَاحِحُهُ.

وَأَمَّا مَنْ مَاتَ بَعْدَ أَنْ تَابَ فَأَدَّى جَمِيعَ مَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَاجْتَنَبَ الْمُحَرَّمَاتِ فَهُوَ كَأَنَّهُ لَمْ يُذْنِبْ لِقَوْلِهِ ﷺ: «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ» حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ.

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَسْلِمْتُ أَوْ أَقَاتَلْتُ؟ قَالَ: «أَسْلِمْتَ ثُمَّ قَاتِلْ»، فَأَسْلَمَ فَقَاتَلَ فَقُتِلَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَمِلَ قَلِيلًا وَأُجِرَ كَثِيرًا»، أَيِ لَأَنَّهُ نَالَ الشَّهَادَةَ بَعْدَ أَنْ هَدَمَ الْإِسْلَامَ كُلَّ ذَنْبٍ قَدَّمَهُ فَالْفَضْلُ لِلْإِسْلَامِ، لَأَنَّهُ لَوْ لَمْ يُسْلِمْ لَمْ يَنْفَعُهُ أَيُّ عَمَلٍ يَعْمَلُهُ. وَهَذَا الرَّجُلُ كَانَ التَّحَقُّ بِالْمُجَاهِدِينَ مِنْ أَجْلِ أَنْ قَوْمَهُ الَّذِينَ هُمْ مُسْلِمُونَ خَرَجُوا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْلِمَ ثُمَّ أَهْمَهُ اللَّهُ أَنْ يَسْأَلَ الرَّسُولَ فَسَأَلَ فَأَرْشَدَهُ الرَّسُولُ إِلَى أَنْ يُسْلِمَ ثُمَّ يُقَاتِلَ.

خاتمة الخاتمة

قال المؤلف رحمه الله: لِيُفَكِّرَ الْعَاقِلُ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [سورة ق].

فَإِنَّ مَنْ فَكَّرَ فِي ذَلِكَ عَلِمَ أَنَّ كُلَّ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ فِي الْجِدِّ أَوْ الْهَزْلِ أَوْ فِي حَالِ الرِّضَى أَوْ الْغَضَبِ يَسَجِّلُهُ الْمَلَكَانِ، فَهَلْ يَسُرُّ الْعَاقِلَ أَنْ يَرَى فِي كِتَابِهِ حِينَ يُعْرَضُ عَلَيْهِ فِي

القيامة هذه الكلمات الخبيثة؟ بل يسوؤه ذلك ويُجزئه حين لا ينفع الندم، فليعتن بحفظ لسانه من الكلام بما يسوؤه إذا عُرضَ عليه في الآخرة.

قال رسول الله ﷺ: «خَصَلَتَانِ مَا إِنَّ تَجَمَّلَ الْخَلَائِقُ بِمِثْلِهِمَا حُسْنُ الْخُلُقِ وَطُولُ الصَّمْتِ»، رواه عبدُ الله بنُ محمّدٍ أبو بكرٍ بن أبي الدنيا القُرشيُّ في كتابِ الصَّمْتِ.

b

انتهى الكتاب
وسبحان الله، والحمد لله رب العالمين،
وصلّى الله وسلّم على سيدنا محمد الأمين،
وعاله وأصحابه الطيبين.

k

الفهرس

٣	مقدمة
٥	نبذة في ترجمة المؤلف
٩	الصرّاط المستقيم
٩	أعظم حقوق الله على عباده
١٠	معنى الشهادتين
١١	الفرض على كلّ مكلف
١٢	لا دين صحيح إلاّ الإسلام
١٣	حكم من يدعي الإسلام لفظاً وهو مناقض له معنى
١٤	بيان أقسام الكفر
١٨	ما يستثنى من ألفاظ الكفر القولي
٢٤	فائدة مهمة
٢٥	عود إلى تقسيم الكفر لزيادة فائدة
٢٦	فائدة
٢٧	الوقاية من النار
٢٨	ما جاء في بدء الخلق
٢٩	قدم الله ليس زمانياً
٣٠	تنزيه الله عن المكان وتصحيح وجوده بلا مكان عقلاً
٣٩	صفات الله الثلاث عشر
٣٩	الوجود

٤٠		الْقِدَم.
٤٠		الْبَقَاء.
٤١		السَّمْع.
٤١		البَصَر.
٤٢		الْكَلَام.
٤٣		الْإِرَادَة.
٤٤		الْقُدْرَة.
٤٦		الْعِلْم.
٤٦		الْحَيَاة.
٤٧		الْوَحْدَانِيَة.
٤٧		الْقِيَامُ بِالنَفْس.
٤٨		المُخَالَفَة لِلْحَوَادِث.
٤٩		صِفَاتُ اللَّهِ كُلِّهَا كَامِلَة.
٥٠		سَبَبُ نَزُولِ الْإِخْلَاص.
٥١		الْآيَاتُ الْمُحْكَمَاتُ وَالْمُتَشَابِهَاتُ.
٥٦	 ﴿٧٢﴾	تَفْسِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنْ رُوحِنَا﴾ وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنْ رُوحِي﴾
٥٨	 ﴿٥﴾	تَفْسِيرُ الْآيَةِ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾
٦١		تَفْسِيرُ مَعْنَى اللَّهِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْقُرْآنِ.
٦٢	 ﴿١١٥﴾	تَفْسِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾
٦٣	 ﴿٣٥﴾	تَفْسِيرُ: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾
٦٤		مَعْنَى الْقَدَرِ وَالْإِيمَانِ بِهِ.

٧٢	تقدير الله لا يتغير.....
٧٣	تقسيم الأمور إلى أربعة.....
٧٤	توحيد الله في الفعل.....
٧٦	الدليل العقلي على فساد قول المعتزلة بأن العبد يخلق أفعاله.....
٧٧	إثبات أن الأسباب العادية لا تؤثر على الحقيقة وإنما المؤثر الحقيقي هو الله..
٨٥	تنبيه مهم.....
٨٦	النبوة.....
٨٦	الفرق بين الأنبياء والرسل.....
٨٦	ما يجب للأنبياء وما يستحيل عليهم.....
٨٧	المعجزة.....
٨٨	من المعجزات التي حصلت لمن قبل سيدنا محمد ﷺ.....
٨٩	من معجزاته ﷺ.....
٩١	الإسراء والمعراج.....
٩٢	رؤية النبي لربه بقلبه لا يبصره في تلك الليلة.....
٩٣	وجه دلالة المعجزة على صدق النبي ﷺ.....
٩٣	السبيل إلى العلم بالمعجزة بالقطع واليقين.....
٩٤	الإيمان بعذاب القبر ونعيمه وسؤاله.....
٩٦	حكم منكر عذاب القبر.....
٩٧	البعث.....
٩٧	الحشر.....
٩٧	الحساب.....

الميزان.....	٩٨
الثواب والعقاب.....	٩٨
الصِّراط.....	٩٩
الحوض.....	٩٩
صفة الجنة.....	١٠٠
صفة جهنم.....	١٠٠
الشفاعة.....	١٠١
الروح.....	١٠١
بيان أن رحمة الله شاملة في الدنيا للمؤمنين والكافرين خاصة بالمؤمنين في الآخرة.....	١٠٢
البدعة.....	١٠٣
إثبات أنّ التوسل بالأنبياء والأولياء جائز، وأنه ليس شركاً كما تقول الوهابية	١٠٥
التبرك بآثار النبي.....	١١١
الاجتهاد والتقليد.....	١١٣
خاتمة.....	١١٦
خاتمة الخاتمة.....	١١٧
الفهرس.....	١٢٠

